ارتباك القيم

أيمن جبر

النخبة
للنشر والتوزيع

ارتباك القيم

ارتباك القيم
للكاتب : أيمن جبر

الطبعة الأولى القاهرة : 2025

رقم الإيداع : 2025/11269

الترقيم الدولي : 978-633-8292-32-4

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
من دون الحصول على موافقة خطية من المؤلف .

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر عن رؤية الناشر بالضرورة،
وإنما تعبر عن رؤية المؤلف .

دار النخبة

عضو اتحاد الناشرين المصريين - " عضو اتحاد الناشرين العرب

مصر القاهرة 23 ش عبد الخالق ثروت

Mob &Whats: 00201096124252

info@elnokhbapublish.com

www.elnokhbapublish.com

طبع في مصر

ارتباك القيم

أيمن جبر

2025

النخلة
للنشر والتوزيع

-إلى «زكي نجيب محمود» غواص نبيل، يبحث عن الحكمة في الجينات الاجتماعية والفكرية والنفسية للمجتمع، فامتلأت كتبه بوصف الداء والدواء.

-إلى موقع حانة الشعراء وجنوده النبلاء: الشاعر وليد الزوكاني، الصحافية الكاتبة جولييت المصري،الكاتبة الشاعرة حنان عبد القادر..
هنا،حيث تنبت كلماتي، فتكتمل كتابا يخرج للنور.

info@poetspub.com

المقدمة

يتدرب التلاميذ في المدارس على أنّ «القصير في المقدمة والطويل في المؤخرة»،وبهذه القاعدة يكون طابور الصباح منتظما والكل يرى بوضوح الملعب،والجميع في مجال رؤية إدارة المدرسة، وبتطبيق نفس القاعدة في توزيع الجلوس على المقاعد، يستطيع القصير والطويل رؤية السبورة بسهولة دون أن يعيق أحدٌ نظر الآخر.. ماذا لو كان طول التلاميذ يتغير يوميا؟ بالتأكيد ستحدث مشكلة عظيمة، وسيعاد الترتيب دائما فيضيع الوقت ويشتت الجهد ولن يشعر التلميذ بالاستقرار.

القيم يصعب ترتيبها مثلما يصطف تلاميذ المدرسة، لأن ترتيبها لا يخضع لعلاقة خطية، فهناك عوامل كثيرة تحدد استحقاق تقدم القيمة وتأخرها عن قيمة أخرى، ففي الظروف الطبيعية تتقدم قيمة العدل وفي ظروف أخرى تتقدم قيم الرحمة أو صلة الرحم على العدل، وفي ظروف السلم تتقدم الحرية كقيمة، وفي ظروف الفوضى تتقدم قيمة الأمن على الحرية ولو لفترة مؤقتة حتى يزول الهرج،ولهذا فالإنسان دائما يمارس اختبار ترتيب القيم، وهذا يحتاج وعيا ومعرفة وإيمانا.

إن ارتباك القيم مثل ارتباك جسد الإنسان، فكل أعضائه لها حجم يتناسب مع الشكل والوظيفة، فلا تتضخم الأنف أو الأذن ولا تتقزم الساق ولا تلتصق الأصابع، كل هذا يربك الإنسان وينزع منه الراحة تماما، ولكننا في أغلب حياتنا مرتبكون في قيمنا، فمن جعل قيمته الكبرى المال فقط، سوف يقزم كل القيم التي تنازع المال في نموه، ومن جعل قيمته العبادة الشعائرية فقط، سوف يقزم كل القيم التي تحاول التقدم على طقوسه، فترتبك الحياة وبقية القيم.

تحتاج المكتبة العربية ومناهج التثقيف والتعليم بحوثا وأنشطة بلا عدد لتجعل ترتيب القيم في المجتمع سهلة ومفهومة وتلقائية، نشاط قيمي مرن يتدرب عليه الطفل والتلميذ والشاب والشيخ، سيسهم في انسجام الحياة؛ فتسلم العلاقات ويتحقق الإنجاز.

ثغرة أمل

«طالما يصدمك الهَجرُ والتَخلي، ويُخِلّ توازنك انقلابُ الحبيب، ويُربكك انقطاعُ العَشم، ويَطرحك أرضا الفَقدُ والرحيل، فأنت لم تَنْضج بعد»

في مدينة أمريكية، تذهب السيدة التي تجاوزت الستين إلى منزل زوجها الذي فاجأها بإعلانه طلب الطلاق، هجرها فجأة بدون مقدمات لأنه أحب أرملة، يعتقد الأمريكي أنَّ الحبَّ مثل الإنفلونزا الحميدة، ليست فقط مرض، ولكن قضاء وقَدَر وحق بَشري ومُبرِّر للغَدْر.

اقتحمت الزوجة المصدومة منزل الأرملة التي سلبتها زوجها، سألتها «لماذا؟»

قالت في برود وهدوء: «لأننا كنا ثلاثة أشقياء، والآن بَقِيَت شقية واحدة»

ردٌ بليغ وبارد، وخلاصته كما يقول المثل: «ياروح ما بعدك روح».

حين صارحها زوجها قال: «هي أمرأه أستطيع أنْ أعبر لها عن مشاعري التي لا أستطيع أنْ أقولها لك، أذاقتني الحب فأدركت أنني منذ ثلاثين عام صعدت إلى القطار الخطأ، أنت القطار الخطأ الذي صعدته حين تزوجتك» ، مَن هذا الأحمق الذي يتزوج ثلاثين عام، ثم يكتشف متأخرا وفجأة أنَّه ركب القطار الخطأ، أو يكتشف الخطأ مبكرا ثم يظل ثلاثين عاما مترددا حتى أخيرا يقرر الهبوط، وقبل أن يغادر، يوجه لزوجته هذه العبارات القاسية.

الزوج مدرس تاريخ، التقط من التاريخ قِصصا ثم أسقطها على حالته فجعلها مبرر غدره بزوجته، حدثت القصص أثناء

«حملة نابليون على روسيا»، حين انسحب الجيش في الشتاء بعد هزيمته، وهما حادثتان :

الأولى: «أثناء الانسحاب، حين يقترب الجندي الفرنسي من الموت متجمدا أو يسقط منهارا على الثلج، يهرع زملاؤه الفرنسيون متسابقين إليه، ليس لإسعافه ولكن للإستيلاء على ملابسه وهو مازال حيا، فيموت متجمدا وعريانا».

الثانية: «كان الجرحى يُحمَلون على عربات، وهذا يؤخر إنسحاب الجند الذين يواجهون خطر اصطيادهم من الروس في هجمات مفاجئة، فكان السائق يتعمد أنْ يختار الأماكن التي بها مطبّات حادة، فيسرع أثناء المرور فوقها، فيتسبب ارتجاج العربة في سقوط الجرحى، ولا يلتفت أحدٌ وراءه، وبهذا تصبح العربة أكثر خِفّة مع كل مطب».

في العالم الغربي، لا يُزَوِّرون التاريخ ولا يزخرفونه أو يخفوه مثلنا، وهذا سر نجاحهم، يعترفون بحسناتهم وخطاياهم في كتبهم ويُدَرِّسونها للطلاب في المدارس.

* * *

كلما دارت هذه القصص في خاطر الزوج، قوي قلبه وعزمه على التخلي عن زوجته، كلاهما تعيس بسبب برود العلاقة،فلينزع نفسه عنها بكلمة قاسية ويتحرر، يُسقطها من عربة حياته بكلمة لا تختلف كثيرا عن هذا المطب الذي تعمد السائق الفرنسي الاصطدام به، ويرحل ويرتاح بعلاقة يظنها الفرصة الأخيرة للسعادة.

أدهشني موقف ولدهما الوحيد، رغم تعاطفه مع أمه إلا أنَّه يعذر أباه،لأنه أحب، فالحب عند الغرب مشاعر وحرية شخصية مقدسة ومفهومة، ورث الولد طباعَ أبيه الهادئة والمُحَيِّرة، التي تجعل من الصعب عليه الاحتفاظ بفتاة،يعاني صعوبة في العلاقات، ويحيا وحيدا لأنه كلما

ارتبط بفتاة تعجز عن فهمه أو النفاذ إلى نفسيته، و«من شابه أباه فما ظلم».

* * *

يُعطي الفيلم نموذجا جديدا لاهتمام السينما الامريكية بالإنسان دون التقيد بسن، ويُظهر أنَّ المجتمع الأمريكي بأفراده مساكين بامتياز، تقترن الحرية الشخصية المتاحة بمجال مساوٍ من الأنانية، ومساحة الأنا خَلَقت فجوة بين الابن وأمه وأبيه وأخيه، الإبن يحيا وحده ويُحب أن يَحيا وحده، وقد كان على وشك أن يطلب من أمه أنْ تسكن معه تعاطفا معها، وخضوعا للظرف القاهر، وليس رغبة في أن يعيش مع أمه،فراحته في العيش وحده ولا يريد مقتحم لحياته.

من المعتاد في فرنسا ودول أوربية أخرى، أن تقرأ إعلانا يوضع على حوائط البيوت، يطلب أحد كبار السن، رجلا أو أمرأة تنظف له بيته وتخدمه، على أن ترث بيته في حال وفاته.

لدى الغرب الجانب العكسي والوجه الآخر لمشاكلنا، فنحن نعاني من قرب المسافات بيننا واتساع مساحة التداخل بين دوائرنا، بينما هم يعانون من تباعد دوائرهم حتى يكاد ينعزل الفرد تماما.

* * *

في حوار درامي مدهش، صارحت الأم ولدها بأنَّ فكرة الانتحار تراودها كثيرا هذه الأيام، قال لها: «حين تنوين الانتحار لا بد أنْ تخبريني قبلها»،فنظرت إليه متعجبة،فأردف قائلا: «طالما وجدتي الحياة صعبة عليك،وقررت الاستسلام والرحيل فلن أمنعك، هذا حقك،ولكن على الأقل أمنحيني الفرصة لوداعك، فهذا حقي، لأنَّ ما ستفعلينه سوف يعطيني درسا أسترشد به

في حياتي، فعندما تستسلمي وتنتحري، سأعرف أنَّ الطريق صعب للغاية وسيستغرق وقتًا طويلاً، وأعرف أنه في النهاية،ستنتصر التعاسة، فانتحر مبكرا وألحق بك، لكن إذا واصلت وتحملت الأمر، على الرغم من فظاعته، فسأعلم أنه مهما ساء الأمر،سأتمكن من الصمود لأنك فعلت ذلك من قبلي».

حوار غريب ومدهش، حوار من أمامه الحياة والحرية بلا حدود مثل البحر، ولا يتقن السباحة ويعيش داخل مخاوفه وأوهامه وعجزه، رغم إنهم في أرض الأحلام، بلاد العم سام،البلاد التي أصبحت حلم هجرة كل عربي، وما أكثر قوارب الموت التي حملت شبابنا على ظهرها لمقامرة الهجرة إليهم، وقليل منهم من ينجو من أن يصبح طعاما للأسماك،معضلات الحياة عند هؤلاء الأمريكان ليست مثل معضلات عِزبة أهل العرب، أهل عزبة الصفيح.

* * *

يقول الدكتور «مصطفى محمود»: إنَّ اعصابنا مصنوعة بطريقة خاصة،تحس بلحظات الانتقال ولا تحس بالاستمرار،حينما تركب الأسانسير تشعر به في لحظة تحركه وفي لحظة توقفه، أما في الدقيقة الطويلة بين اللحظتين، لا تشعر به، لأن حركته تكون مستمرة، وحينما تعيش متمتعاً بصحة مستمرة لا تحس بهذه الصحة، ولا تتذكرها إلا حينما تمرض، فإذا دام شيء في يدنا فإننا نفقد الإحساس به.

وبهذا الوصف البليغ تبرز ضرورة تجديد مشاعر الإنسان وأحاسيسه بنفسه، فلا ينسى نفسه في خضم تعلقها بالآخرين، لا يجعلها منسية في دولاب الآخرين، عليه دائما أنْ يحركها ويحاورها ويتعامل معها كرفيق يستحيل أن يتخلى عنه.

قرأت مقالا للدكتور «مصطفى محمود» في كتاب «الروح والجسد» بعنوان «حب الامتلاك» وردت فيه هذه الفقرة:

«عن نفسي، لا أتمنى أن تحبني امرأة هذا الحب. لم؟، لأن المرأة التي تحب هذا الحب، لا تسامح، إنما ترى نفسها قد أعطتني روحها، فلا أقل من أن تأخذ روحي، والذين يحبون هذا الحب هم بين، قاتل ومقتول،وأنا لا أحب أن أكون أحدهما.

* * *

حكى لي صديقي، أنه شعر أن زوجة إبنه تغيرت فجأة في معاملتها معه،واحتار في معرفة السبب، ثم أخيرا أكتشف أنَّ ابنه وزوجته قد جعلا وسيلة التواصل الإلكترونية لهما متاحة للقراءة من كلاهما، أو أعطى كل منها كلمة السر للآخر، فكانت النتيجة أنَّ أي حوار بين أهل الزوج والزوجة يقرأه الزوجان، قال صديقي ساخرا: «لقد سلمني ابني تسليم مفتاح إلى زوجته، ولا شك أنني تكلمت كلمة لم تعجبها، ومنذ ذلك الوقت وضعت على لساني جهاز رقابة حين أتحدث مع ابني سواء بوسائل التواصل الإلكترونية أو الموبايل أو حتى وجها لوجه، فما أدراني هل وضع كل منهما جهاز تسجيل في قميص الآخر أم لا، فهؤلاء المجانين يظنون أنَّ زوال الخصوصية زيادة محبة».

هذه القصة تجسد حماقة الإنسان حين تجرفه مشاعره اللحظية ويبحث عن تعقيد الحب في إجراءات سطحية ساذجة، تزيد من ألمه لو حدث افتراق.

* * *

ليست فقط العلاقات الزوجية التي تتباعد بعد اقتراب، كل العلاقات تتعرض لهذا التردد بين الاقتراب والابتعاد،الصداقات والقرابات والعلاقات المشتركة

كلها،ويتقبل الجميع هذا الانفصال، ولكن لا يكون الأمر سهلا في العلاقات الوثيقة وخاصة الزوجية والأسرية، فتخلي الأزواج أو الأبناء شديد الأثر، لأن هذه الأطراف تتساند على بعضها ماديا ومعنويا ونفسيا، ولا يخطر ببال أحدهم افتراق، ولهذا يكون التخلي أضخم أثرا وكأنه الموت.

لا بد أن يحاول الإنسان التسلح بنفسية احتمال الاكتفاء بنفسه ولو لفترة زمنية، فيكرمها ولا يهينها، وفي نفس الوقت لا يجعل من علاقاته بالناس هروبا من نفسه، فيظل يحشرها في حياة الآخرين هربا من ملل الوحدة،يجب أن يتدرب ويتعود على أن تكون راحته في مصاحبة نفسه سواء بالحوار معها أو الأنس بها، فالذي تضطرب حياته بسبب تخلي يزيد اضطرابه بقدر مخاصمته لنفسه وهجره لها.

* * *

الحياة رحلة أصحاب، رفاق طريق، الثابت والذي لا ينتهي هو الرحلة،أما الصاحب والصحبة قد يتبدلوا بحسب الأقدار،فلندرب أنفسنا على ما ذكره الأديب «عبد الوهاب مطاوع» في كتابه «أهلا مع السلامة»:

«حين تأتي النهاية فإنه يحسن ألا نطيل فيها، إذ لا معنى للاطالة إلا مضاعفة العناء ومكابدة الحسرة، لأن القطار قد غادر محطته بالفعل،وانطلق بأقصى سرعة، ولن يلتفت للمهرولين خلفه، وفي الحب والحياة، ينبغي أن يتعلم الإنسان أن يقول وداعا في الوقت المناسب، وأن يتذكر دائما أن لكل شيء نهاية، فلا يحاول عرقلة ستار الختام عن أن ينزل في موعده، ولا يُعرض نفسه للهوان بالتشبث بالأستار، محاولا تأخير إسدالها».

ممنوع يوم الأحد

في الفيلم الأمريكي الحائز على أوسكار، بعنوان؛ «ممنوع يوم الأحد» «Never on Sunday»، فتاة أمريكية تشتغل بالبغاء، وهي مهنة قبيحة في مجتمعنا؛ ولكنها تلقى تفهما في أوربا وأمريكا، تتوق الفتاة للحياة الكريمة،وتتمنى أن تعيش مثل أي ربة بيت مُوَقَّرة وتحلم بمن يَنتَشلها ويُكْرمها ويتزوجها وتُخلص له بقية الحياة ولأنها لا تستطيع تحقيق حلمها فقد ابتدعت نظاما خاصا بها، يجعلها تمارس حلمها يوما في الأسبوع،فكانت تأخذ إجازه يوم الأحد، تتحول للمرأة التي تتمناها، وعلم أهل المدينة بنظامها الخاص فاحترموه، وكان يزورها الرجال والنساء كأصدقاء ويعيشون معها يوما مَرِحا يعاملونها كربة بيت، تستضيفهم وتقدم لهم بِكرم وود الحلوى والمشروبات، ويتحدثون في كل شيء عدا مهنتها وتتلقى معاملة وكلمات ونظرات احترام وليس فيها أثر لما يعلمه الناس، وكأنها في هذا اليوم إنسانة أخرى، وحين يطرق بيتها يوم الأحد زبون، تثور وتطرده بعنف.

ولأن كلنا واقعون في نقاط ضعف، ولأن كلنا بعيدون عن نقاط قوة،فهذه الفكرة ملهمة ونبيلة.

هذه الفتاة قررت قرارا مدهشا، كسرت «دائرة النمط والتأنيب»، نزعت القابس ليوم واحد في الأسبوع، ولا تدري ماذا بعد، لم تهتم بالتفكير في خطوة تالية ، هذه القصة تحكي عن إنسانة تمارس مهنة تؤلم ضميرها، ماذا عن الذي يمارس مهنة لا تؤلم الضمير ولكنها كثيفة بحيث تحشر صاحبها في دائرتها وروتينها طوال الحياة، مثل الطبيب الذي نهاره في المستشفى وبقية نهاره وليله في

العيادة الخاصة، وهكذا تمضي السنون ويتسلل الشَيب إلى رأسه دون أنْ يلتفت خارج هذه الدائرة، هذا الطبيب لم يذق سوى المهنة وأرباحها، ومثله مهن كثيرة تستغرق اليوم والحياة في دائرة لا تتوقف، دائرة تسوقه وهو يظن أنَّه يسوقها، في هذا النموذج لن يتورم ضميره بسبب الحكم القِيَمي على المِهنة ولكن الذي سيهزمه هو الملل والشعور بعدم الجدوى مما يعمل، فقد حرمته دائرة الروتين من بقية الحياة ومن العيش في شخصيات وأنشطة أخرى موازية.

* * *

في التراث الديني دعوتان للصَدَقة، الأولى تحثّ على صدقة السر لحفظ النية الصالحة ولستر المتصدق عليه، والثانية تمدح من يَسن علنا سُنَّة حسنة، مثل من يبدأ بنشر خير فيتبعه آخرون مندفعين وراء مبادرته.

الغالب استجابة الناس إلى صدقة السر، وهذه الصدقة تعطي المبرر لكل الناس بالادِّعاء بأنهم يتصدقون سرا وربما يتيسر لمن دخله الشهري مليونا أنْ يتصدق شهريا بجنيهات قليلة، فحجة السر تغري بغلبة الشُح على النفوس، فيندر الكرماء ويغلب البخلاء ويضيع الفقراء ويُحرم المجتمع من فرصة سَيران تيار بِر وخير يدور بين الناس علنا.

النادر والذي تلاشى في زمننا اليوم هي صدقة العلن والعمل الصالح المعلن، وحين تسأل أي شخص، يدَّعي أنَّ له سِر بينه وبين اللّه يؤدي فيه الصدقة ولا يُعلنها، ولو رصدنا العمل الخيري في أوربا لوجدنا الكثافة الهائلة للمساهمة المجتمعية في أعمال الخير، وقديما في بلادنا كان يُشتهر عن ثري أنه بنى مستشفى أو تبرع بأرض لمدرسة أو جامعة ولكن اليوم اختفى هذا النموذج تماما ولا يبرز للسطح

سوى من يتبرع لنادي رياضي حين يحرز أهدافا أو لشراء لاعب شهير.

أصبحت المؤسسات التي تتلقى التبرعات حائلا بين المتصدق والفقير،وهذا سر الجفاف العاطفي والروحي والإنساني في مجتمعنا،فاختفى التفاعل الإنساني والشعوري بين الطرفين، وهو ضروري لمتانة لحمة المجتمع فتلامس الأيدي وتلاقي العيون وتبادل الكلام حين الصدقة يربط الناس برباط روحي وإيماني متين.

* * *

"وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ" (إبراهيم – 7)

هل تلاحظون التقابل بين؛ شَكَرْتُمْ وكَفَرْتُمْ؟.. ما هو شكر النعمة وكفرها؟

هل تلاحظون التقابل بين؛ "لَأَزِيدَنَّكُمْ" و "إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ"؟

سأعود لنموذج الطبيب، الذي لو سألته عن مساهمته للخير سيقول «أنا أتصدق»، فتنصحه بأنْ ينفق مما عنده علنا، الطبيب لديه مهنته، فماذا عليه لو قطع الدائرة بأن كرَّس علنا يوما في عيادته للكشف مجانا، فيصبح هذا اليوم بعنوان (ممنوع الربح يوم الأحد)، بهذا ورغم ثبات الروتين، إلا أنَّه خرج من دائرة العمل للكسب، فيرى في عيون الناس نظرة مختلفة، نظرة العِرفان من المريض الفقير مقابل نظرة الرحمة من الطبيب، وبهذا تلين إنسانيته ولا تتيبس، ويُعطي مثلا للناس، فيفعل مثله زملاءه الأطباء، ويتوفر بالمدينة في كل يوم فرصة للكشف المجاني، ويفعل مثله الآخرون في مهنتهم، وكلٌ ينفق مما يتقنه ومما يتوفر عنده، فالتاجر يختار من بضاعته ما يهبه للفقراء دون ربح أو مجانا بحسب قدرته ونيته، وكل صاحب

مهنة يبتكر طريقة إنفاق علنية من نفس بضاعته فينتشر الخير ويصبح المجتمع صالحا وسالما.

* * *

هل نحتاج قرار سلطوي لتنفيذ تلك الأفكارا، أم يستطيع الأفراد المبادرة بتنفيذها ولو في نطاق ضيق في كل مجتمع؟

طالب يَدرس في سويسرا ويسكن في غرفة عند امرأة تجاوزت الستين،كانت معلمة قبل تقاعدها والآن تستلم راتب تقاعد مجزي، لكنها تذهب مرتين في الأسبوع، لرعاية مسن عمره 87 سنة، أبدى الشاب امتنانه مما تفعل وسألها إنْ كانت تعمل لكسب المال، فأجابت إنها تعمل لتكسب الوقت، وتودع لنفسها وقتا في بنك توفير الوقت أو «بنك الزمن»، لكي تستطيع الصرف منه عندما تحتاج له، عندما تتقدم في السن أو تصاب بحادث وتحتاج من يساعدها، سألها عن معلومات أكثر عن ذلك البنك،قالت له: «إنَّ الحكومة السويسرية أنشأت ذلك البنك كضمان اجتماعي للناس حيث يفتح كل راغب في الاشتراك فيه حساب زمن،بحيث يُحسب له الزمن الذي يقضيه في الخدمة الاجتماعية خصوصا خدمة المسنين والمرضى الذين لا يوجد لهم من يرعاهم أو يساعدهم من عوائلهم، يشترط على المشترك أن يكون سليما صحيا وقادرا على العطاء والتواصل مع الآخرين والتحمل وراغبا في تقديم الخدمات بنفس راضية وإخلاص، عندما يحتاج الشخص مساعَدة يرسل له البنك شخصا متطوعا ممن اشتركوا في البنك ليخدمه ويُخصم الوقت من حسابه، الخدمات التي يقدمها المتطوع إما تقدم للمحتاج في المستشفى أو في البيت كأن يرافق المحتاج للتسوق أو للتمشي أو لمساعدته في تنظيف منزله».

في أحد الأيام احتاجت تلك المرأة للمساعدة عندما سقطت أثناء تنظيف نافذتها وكسر كاحل قدمها واضطرت للبقاء في السرير عدة أيام، أراد الطالب تقديم إجازة اضطرارية لمساعدتها لكنها قالت إنها لا تحتاج مساعدته لأنها قدّمت على طلب سحب من رصيدها في البنك وأنهم سيرسلون لها من يساعدها، جاء المساعد الذي عينه البنك وكان يرعاها و يتحدث معها ويرافقها ويقضي لها حوائجها من السوق، وأرسل لها البنك ممرضة عندما احتاجت لذلك، بعد أن تعافت من الكسر عادت للعمل مرتين في الأسبوع لتعويض ما خسرته من وقت في البنك باختصار ذلك البنك وجد لتبادل أو مقايضة خدمات اجتماعية بدلا من تبادل أموال.

فكرة جميلة جدا ومفيدة، يمكن تطبيقها في كل مجتمع من المجتمعات لكنها تتطلب انضباطا وإحساسا بالمسؤولية وإخلاصا في أداء العمل وثقافة إنسانية عالية .

في كندا، تم دمج دار لرعاية المسنين مع دار للأيتام، وكانت النتيجة أفضل بكثير من المتوقع ، أصبح لكبار السن أحفاد ولم يشعروا بالوحدة أبدا ، وهبط اشتياقهم لأبنائهم وأحفادهم، أما الأيتام فأحسوا بأنّ كبار السن أجدادهم الحقيقيون وألفوهم وتعلموا منهم.

فكرة بسيطة وعبقرية تحل مشكلة للطرفين، يجد اليتيم رعاية كريمة وحكيمة وحنونة من المسنين، ويشعر المسن أنه مازال قادرا على العطاء،وتقوم الدار برعاية المسن، فكرة مجانية وتوفر كثيرا وتحقق نتائج تتفوق على نتائج قيام كل دار منعزلة عن الأخرى.

بالعودة إلى قصة الفيلم نجد المجتمع لم يحكم قِيَميا على مهنتها واحترم خياراتها في الحياة، ولا نستطيع تخيل هذا السيناريو عندنا، فالمشهور عندنا كما في

الفيلم العربي يجتمع الناس أمام البيت ويهتفوا: «لتهبط الغَزِيِّة – الراقصة- وتغادر المدينة»، فالمجتمع العربي لا يرى من الفساد سوى الراقصة والبغي، ولكنه يتساهل مع المراهق حين يخطئ والفاسد حين ينحرف ويظلم، وهذا تناقض صارخ، يدل على ارتباك القيم، فالموقف الطبيعي من المجتمع أن يُعين البغي على امتهان مهنة كريمة ويرحمها، ويمنع الفاسد من فساده بالتصدي له أو التضييق على أسباب الفساد، المجتمع الصالح هو الذي يرحم أفراده ويعينهم على الحياة الكريمة والصالحة.

متى يمتلئ إناءك الصغير

في رواية «التفاحة والجمجمة» للروائي «محمد عفيفي» تحطمت سفينة في وسط البحر، ولجأ من نجا منها إلى جزيرة، وكان في الناجين «مهندس» يَفهم في صناعة المراكب، فأرشدهم لصناعة مركب من أشجار الجزيرة،ركب الناجون وغادروا الجزيرة ومعهم زاد يكفي أياما طويلة،وبعد أن ابتعد المركب قليلا عن الجزيرة، ابتلعته موجة ارتدادية دارت به حول الجزيرة عدة مرات ليستقر في النهاية على شاطئها، كرروا المحاولة مرات عديدة، وانتهوا إلى نفس النتيجة المخيبة للآمال، بعد تفكير توصل المهندس إلى نظريه، قال:

«التيارات المائية في هذا البحر من دأبها أنْ تتجه إلى الجزيرة في دائرة حلزونية ، وبعد أن تصطدم بأرض الجزيرة ترتد عنها بفعل الصدمة ولتفسح الطريق للتيارات الأخرى التي لا تبرح تتدفق على الجزيرة، وبهذا فهناك تيارات تبتعد عن الجزيرة مثلما هناك تيارات تتوافد عليها وتتحرك في حركة حلزونية مشابهة، فلنبحث عن هذه التيارات ونركبها وتحملنا للخارج، ونحن لم نعثر على هذه التيارات لأننا كنا نغادر في خط عمودي،فلو سكن المركب على الماء سوف تبتلعه موجة للخارج مثلما ابتلعته من قبل موجة للداخل». وكانت هذه الفكرة سببا في الخروج من الدوامة وبداية رحلة العودة للوطن.

في هذه القصة لم يتوصل للحل إلا الذي لاحظ وفكر وقارن وليس الذي ظل يذهب ويرجع لنقطة الصفر بلا نهاية ، في رحلة الدين والدنيا، هل يوجد فينا من يظل طوال عمره يتحرك للأمام وبعد أن يقطع مسافة كبيرة يجد نفسه يرتد

رغما عنه إلى النقطة الأولى، ويظل عمره كله في هذه الدائرة المغلقة والغير مُنجزة؟

قال صديقي حين كنت أعمل معه بالمملكة العربية السعودية: «ألا تأتي معي غدا لنؤدي العمرة ونغسل ذنوبنا!»

في الماضي كان مفهوم «غسيل الذنوب بالعمرة» تستسيغه عقليتي،ولكني اليوم أجد صعوبة في تمرير هذا المفهوم، لأنه يعبر عن العقلية التي سادت فينا خلال القرن الأخير، عقلية ترى الذنوب مثل العرق والغبار وما ينفلت من جسد الإنسان، ويُنظّف بمعالجة مادية مثل الاستحمام، ففي العمرة ثواب ومغفرة، وفي الصلاة بمكة والمدينة ما يعادل مئات الآلاف من الصلوات، وبهذا فما فرط في سنوات طويلة رحلت وبعدت، يمكن التطهر منه في أيام معدودات، وبهذا نحن نفكر بعقلية «الغسيل» وليس عقلية «التغيير»، هذه العقلية أشبه بقصة دوامة الجزيرة تقدم في خط مستقيم ثم عودة سريعة لنقطة البداية.

«إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (الرعد:11). طلب الله تعالى منا أن نغير ما بأنفسنا التغيير لا الغسيل، تغيير يغلق مسام الخطأ والضلال ويفتح مسام الصواب والصلاح.

قال الله تعالى: «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم» (الشعراء – 88) قلب سليم وليس نظيفاً، من يتأمل هذه الآية يدرك أنها ليست عملية تنظيف بل إصلاح ولهذا تكرر كثيرا في القرآن الكريم «الذين آمنوا وعملوا الصالحات».

المشاعر السيئة تنتج أفعالا سيئة، بَدلا من غسل الذنوب الناتجة عن أفعال سيئة فلنغير الأصل، نغير مشاعرنا

السيئة، فتتبدل إلى مشاعر طيبة فتنتج أعمالا وأقوالا طيبة، وهذا مثال التغيير.

* * *

عندما يأتي رمضان ينحصر هَم ونشاط المسلمين في: عدد «أيام صوم – ركعات تهجد – صلاة بالمسجد جماعة – ابتهالات وأدعية في أوقات ظن الاستجابة – حروف القرآن التي حصل عليها مضروبا في عدد الختمات – العُمرات – الركعات بالمسجد الحرام أو النبوي – ثواب ليلة القدر»

أعدادا كثيرة، كلها تشير إلى أنه شَهر تجارة ومقايضة وبيع وحساب،والبائع إما رابح أو خاسر، وليسامحنا الله حين تَشَرَّبنا مصطلح «التجارة مع الله»، ولم ندرك جوهر معنى «الصِلَة بالله»، فما بين التجارة والصلة والوصال بون شاسع وفضاء واسع.

بعد كل هذا النشاط الجماعي والفردي، علينا أن نتساءل عن حال الناس، هل يخرجوا من رمضان بنفس الحال الأول أم نلمس فيهم تغيير،فيكونوا أكثر صلاحا وسلاما ورحمة وسعة صدر؟

هل فيهم من كان «يكره فأصبح يحب؟ – يقسو فأصبح يرحم؟ – يطمع فأصبح يزهد ويؤثر؟».. من الذي تغير؟

يدخل أغلب الناس رمضان ويغادروا بلا تغيير، لأنهم تعاملوا معه كشهر غسيل ذنوب وليس تغيير وإصلاح.

«من يشعر بالوحشة، فهو مصر على القطيعة، فالكرم واسع، والمِنَّة فائضة،فلماذا لم يمتلئ إناءك الصغير بعد؟ أنت مُدبر من حيث تظن أنك مُقبل».

كلمات حين نعقلها يكون رمضان غير كل ما فات، وحين نهملها ونستهين بها، يكون رمضان زي كل رمضان، وأيام

زي كل الأيام،وغفلة زي كل الغفلات، وكبسة زي كل الكبسات، ولا تغيير،ولا اقتراب، ولا وصال، ولكن آلة حاسبة تحسب الصلوات والدعوات والتسبيحات والآيات، والبضاعة سُكبت في الإناء، ولا ندري أنَّه ربما (منكوس أو مائل أو مثقوب)، «وكأنك يا أبو زيد ما غزيت».

***

وقعت أميرة في أسر أعرابي، وعرض عليه قومُها أنْ يطلب ما يشاء من الأموال، فطلب مبلغا قليلا جدا (مائة دينار) وبعد أن أطلق سراحها قالوا له: «لو طلبت مائة ألف لأعطوك؛ فهي سيدة قومها»، فقال: «لو أعلم أنَّ هناك عدد فوق المائة لطلبت!»

هذا الرجل تسببت معرفته القليلة في أنْ جاءته فرصة مثل البحر، فنال منها شربة وانصرف، فإناءه معرفته قليلة..ولهذا فاتته فرصة هائلة ونادرة ولا تعوض.

في مسرحية الزعيم؛ قابل عادل إمام، «المنتحل شخصية رئيس الدولة» مُخْبرا في قسم بوليس احترمه وهابه بشدة في حين كان مستهينا حين قابل رئيس دولةفلما أخبروه بأنه رئيس دولة، قال: «تقصد زميل» ، وكأنه يقول أنه موظف مثله، أي مازال أقل من منصب مخبر.

فبحسب قِيَمَه وخبرته القديمة كان المخبر في روعه، الرمز الأقصى للسلطة والنفوذ والرعب.

***

عندما نرى مشهدا لرجل له سلطة ونفوذ، ويوجه له شاب كل أنواع الإهانة والاستهانة، ويظل صاحب النفوذ ساكنا وملاطفا له ويدعوه للسكينة بهدوء وحلم وشفقة، فلا تنفلت منه مشاعر سيئة، تغمرنا الدهشة والتساؤل، ولكن

حين نعلم أنَّ صاحب السلطة هو والد الشاب،تتراجع الدهشة، ولكن نظل نتساءل، حتى لو كان هذا أبوه، فلا يجب أن يسكت عن هذه الوقاحة والتجاوز، وعندما نعلم أنَّ الشاب متوقف النمو، ويحمل عقلية طفل، نفهم المشهد كاملا.

فالمسافة بين عقل الرجل والشاب الذي بعقل ونفسية وعاطفة طفل؛كبيرة جدا.

نتعلم من هذا المثال أنْ نعامل الناس بقدر إيماننا فنشفق على من في مرحلة الطفولة الإيمانية، ونرحم وعيه الساذج فربما ينفعه هذا الرفق فينضج إيمانه وتسمو نفسه. التعامل بهذه النفسية يثمر ثوابا وقبولا عند اللّه أكثر مما ننتظر من الثواب القائم على مفهومنا للتجارة مع اللّه.

من المشاهد المتكررة في السينما الأمريكية انتظام الأمريكي مع طبيب نفسي، وهذا قليل في مجتمعاتنا بسبب الثقافة والفقر، ومن المشاهد المتكررة مشهد البنت أو (الولد) تزور الأب أو (الأم) بعد مقاطعة سنين طويلة، فكل محاولات التفاهم بينهما عبر السنين كانت فاشلة وتنتهي بشجار مؤلم، تجلس البنت أمام الأب المندهش واليائس من التفاهم،وتقول له في نبرة وكأنها تدربت عليها بتوتر أياما طويلة: «لقد نصحني الطبيب أن أزورك وأن أقول لك أنني أسامحك، وأخبرني أنَّ زيارتي والبوح لك بما في نفسي، هما خطوة كبيرة تجاه شفائي» وتظل تتحدث معه أو معها في سلام ويكون اللقاء قصيرا ثم تنصرف ونادرا ما تعود.

في هذا المشهد نرى أن المشاعر السيئة والخِبرة النفسية الحساسة والمتوترة تؤلم الإنسان نفسه أكثر من الذي وجهت له سهام تلك المشاعر، تؤلمه طول الوقت وتعطل وتُفشل مسار حياته، ويصعب تجاهلها، تكون مثل من

يتجاهل ألما مزمنا في جسده، فالمشاعر السيئة بلوى مثل الجروح والأورام الملتهبة التي تتفاقم كلما بقيت دون مواجهة.

ولهذا يقال بالعربية: «يَحمل ضغينة» و«يُكن حبا»فالضغينة والحقد والكره والغيرة والحسد كلهم مشاعر ثقيلة يحملها القلب والصدر، بينما الحب والود والرحمة كلهم مشاعر لطيفة تسكن هادئة وهانئة في النفس وتشع سلاما، وخطوة يقطعها الإنسان في التخلص من المشاعر السيئة والثقيلة تتفوق في بركتها على ما نتمنى من ثواب العُمرات والصلوات بالأماكن المقدسة لأنها خطوات جهاد وتطهر ذاتي وليس طقوسا تؤدّى.

يوم الزينة

يتقن صديقي استخدام المطرقة ولهذا يتعامل مع كل شيء وشخص كأنه مسمار. قلت له: أنت تستخدم المطرقة في كل شيء، ولكل «شيء وظرف» أدواته المناسبة. أجاب: ألا تؤمن بالمطرقة؟ هل تريد أن تلغيها؟ قلت: وهل الدعوة للحكمة والرشاد في استخدام الآلة يعني إنكارها أو نفيها!

هل الحياة دين؟.. أم الدين حياة؟

الدين عنصر مهم للحياة الصالحة والراشدة وللسلام النفسي والاجتماعي، يتوازى ولا يتقاطع مع عناصر كثيرة في الحياة، وهذا سر القول: «عليك أن تجعل المسجد جزء من المجتمع، ولا تجعل المجتمع جزء من المسجد»، فالفرق كبير، لأنك لو جعلت المجتمع جزء من المسجد فسوف يستولي رجال الدين على المجتمع بحجة أنهم أصحاب المسجد.

وحين ننادي بهذا القول يندفع صديقي ثانية ليقول: «وهل تنكر الدين؟ هل تريد أن نلغي الدين؟»

* * *

حين نجتمع في المؤسسة، يشرع الزملاء إلى تبادل الحكايات والشكايات عن قدرهم المسكين «مرض الأولاد قلة المال، غياب البركة، نكد الحياة»، وكان بينهم زميل كنت زرته بالأمس والتقيت بأولاده، فقلت له: «كيف مرض ابنك، لقد تركته بالأمس طيبا»، فاقترب بفمه من أذني وقال: «لا عليك فنحن نقول هذا الكلام خوفا من الحسد».

فتعجبت أن يؤدي الإيمان بغيبيات إلى سريان الكذب بيننا ،كلنا يؤمن بالحسد والسحر والجن، لأنهم مذكورون في

القرآن الكريم، ولكن هل نتفق على تعريفهم وحدودهم؟ يؤمن صديقي – حامل شهادة الدكتوراه – ومعه «أغلب من أعرف من مختلف شرائح المجتمع الثقافية» أنَّ للعين تأثير فوق السوبرماني، فسوبرمان مجلات الأطفال، يرسل أشعة من قعر العين تنطلق إلى الهدف وتَحرقه، بينما عين الحسود ترسل أشعة «تُفقر وتَقتل وتُفَرِق بين الأزواج وتُتلف الصحة وتصيب بالاكتئاب وتفعل كل ما يعكس النعمة إلى نقمة»، وبهذا فهي أشعة شريرة وعاقلة.

ونتيجة لهذا الاعتقاد جعل صديقي حياته جزء من الحسد ولم يجعل الحسد جزء من الحياة، فحياته عبارة عن تشمير ثوبه خوفا أنْ تطوله مياه الحسد، والمشمر ينظر أسفل ويفتش في الأرض ولا ينظر أمامه ولا إلى أعلى، يمشي أسير مخاوف وحذر، وهل هذه حياة؟

وحين ألومه على ذلك يقول: «وهل تنكر – الحسد والسحر والجن – الذين ورد ذكرهم في القرآن!»

وبدلا من أن يستمع لنصيحتي بترشيد مفهوم «الحسد والسحر وتلبس الجن» لكي يترك مساحة للحياة والسلام يرفض ويتمسك بألمه ومعاناته واعتقاده بأن للحسد أنياب.

***

كثيرا ما أتساءل في نفسي، هؤلاء السحرة والحاسدون والمستعينون بالجن، أين هم من أثرياء العالم؟، فلو كان للسحر والحسد والجن هذا التأثير المادي والمعنوي في الإنسان لكانوا هم أثرياء العالم والمسيطرون عليه، لأنهم بهذه الأدوات المزعومة يتحكموا في شخصيات ذات «ثروة ونفوذ» فيسلبوهم ما عندهم ويسخّروهم لرغباتهم وبهذا يصبحون سادة في الأرض، فلماذا لم نسمع في التاريخ أو الواقع عمن نال الملك أو الثراء بالسحر أو الحسد

أو الجـن؟ بـل يَشـهد الواقـع أنَّ كـل مـن يشـتغل فـي هـذا المجـال ليسـوا أثريـاء ولـم يـنفعهم مـا يزعمـون مـن قـدرة وبصيرة. «وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ» (69 – طه)

* * *

نُشـر هـذا الخبـر علـى صـفحات جريـدة «المصـري اليـوم» ومـع صـورة لممثـل شـهير، قـال: «مـن فتـرة السـواق عمـل حادثـة بعربيتـي، وعربيتـي الثانيـة بعـدها جابـت كـونترول يونيـت وبعـدها بكـام يـوم ايـد بنتـي نعـومي اتكسـرت ولسـه متجبسـة، وبعـدها المكتـب بتـاعي اتسـرق، وامبـارح ايـدي حصَـلَّها تمـزّق شـديد جـدا، انـا دايمـا بقـول الحمـد للّه، بـس أموت وأعرف مين الي مركز معايا»

فـي هـذا الخبـر نجـد عبـارات متخلفـة تنفلـت بسـهولة علـى صـفحات جريـدة كبـرى وعلـى لسـان شخصـية شـهيرة، وهـذه الأخبار تسهم في تكريس الأفكار المتخلفة.

* * *

قـال فرعـون لموسـى عليـه السـلام: «قَـالَ مَوْعِـدُكُمْ يَـوْمُ الزِّينَـةِ وَأَن يُحْشَـرَ النَّـاسُ ضُـحًى (طـه – 59)، فـي هـذا العـرض إنصـاف كبيـر، ففـي السـاحة اجتمـع السـحرة ونبـي اللّه ودارت المبـاراة أمـام الجميـع، ولكـن غَـدَر فرعـون بموسـى واتهـم السـحرة بالتآمر معه.

نحـن لا نسـتطيع إخضـاع هـذه المعتقـدات لأدوات الاختبـار الماديـة ولكـن ممكـن دراسـة الأثـر المـادي المزعـوم، وسـوف أضرب مثالا تطبيقيا:

«مـن أكثـر مـا يشـتهر فـي النـاس قـدرة السـحرة علـى الإيـذاء أو النفـع عـن طريـق أخـذ شـيء مـن جسـد الإنسـان أو ممـا يسـتعمله، مثـل شـعره أو قصاصـة مـن ملابسـه، ثـم يقـوم

الساحر بطقوس تنتهي بما يسمى «عملا سفليا» فيقوم بدفنه في المقابر أو في أي مكان، وبعد ذلك يتحقق ضرر لهذا الشخص أو تتغير مشاعره وأحاسيسه، فيكره زوجته أو يعجز عن ممارسة الجنس معها، أو يجلب زوج للبنت أو ينتكس حاله.. إلخ».

«لماذا لا يُستدعى الشخص الذي يزعم امتلاك مهارة في السحر، ويُطلب منه أن يمارسه أمام الناس والإعلام، ويعطى خصلات من شعر عشرة شخصيات، وهذه الشخصيات تجهل أنَّ هذه الخصلات منها، وفي نفس الوقت لا يعرف الساحر هذه الشخصيات، ثم يقوم بعمله، وبعد انتهائه يحدد الأثر الذي طبخه في سحره ليصيب كل صاحب خصلة شعر،وتقوم لجنة بدراسة هذا الزعم، قد ينجح في زعمه مع الشخصيات العشرة، وفي هذه الحالة يكون نسبة نجاحه 100%، وقد ينجح مع نصفهم أو عُشْرهم، أو يفشل تماما ثم يُطلب منه تكرار هذه التجربة على عينات أخرى حتى يتم تأكيد نسبة نجاح الأعمال.

في هذه الفكرة المنطقية، نقوم بحصر الاعتقاد الذي يسود بين العوام،فحين يعلن أمام الناس أن نسبة فلاح هذا المستعين بالسحر أو الجن 10% أو 1% أو صفر%، نكون نجحنا في تحجيمه وحصره أو إلغائه، ويتكرر هذا الاختبار العلني على كل دعاوى (الحسد والسحر والاستعانة بالجن)،وبعد ذلك تستطيع السلطة الدفع بحملات إعلامية وتثقيفية مستندة لهذه التجارب لتفهيم الناس بحقيقة هذه الدعاوى، ويتراجع أثرها في حياة الناس ويتحررون فكريا وشعوريا من الوهم ، ولكننا لا نفعل ولن نفعل.. رغم أن الفكرة بديهية وقابلة للتطبيق.. فكما تقول الحكمة: «البيّنة على المدّعي واليمين على من أنكر»، فمن ادعى مهارة عليه بالبينة.

علينا أن نفتش في الأفكار المرهقة والتي تربك وتتعس حياتنا، وخاصة حين تكون أوهام مقدسة أو أسماء معنوية نتهرب من اختبارها.

* * *

يحكي صديقي: كان لي زميل يعمل معي في الخليج، وكنا نتبادل الزيارات الأسرية، وكان زملائي يتعجبون، ولما سألتهم أجابوا بأنَّه لا يسمح لأحد بزيارته أبدا، وكان أغلب حديثه عن أنَّه «خفيف النِجم»، وهذا يعني أنه يسهل حسده، ولهذا كان يُكثر من الذهاب مع أسرته لأداء شعيرة العمرة، رغم أنها تثقله ماليا، ولكنه يؤمن أنَّ العمرة تعزز مناعته ضد الحسد، وكان كتوما ولا يخبر أحداً عن أي معلومات تخصه مهما كانت بسيطة، فكانت كل حياته تدور حول معالجة ما يطوله من الحسد أو التخفي حتى لا يحسده أحد، وفي يوم زرته معي ابني وزوجته، وبعدها تهرب مني بإصرار، وحين تأكد من أنهم سافروا، عاد ليزورني وأزوره،وحين سألته، قال: «هي ليست مثلك، إنَّ لديها عين حسود»،أفزعني كلامه حتى أنني تعمدت بعدها تخفيف العلاقة بالتدريج حتى انقطعت تماما ، لأنها علاقة خطرة ومربكة، فلا أضمن أن تنقلب ظنونه ضدي .

لو كانت هذه المعتقدات بالقدر الطبيعي في حياتنا لما تطرقت إليها، ولكن ثلاثي «الحسد والسحر ومس الجن» له شيوع ضار في المجتمع، لأنه حين يطرأ حادث أو مصاب يسارع الإنسان إلى نسبته إلى حاسد، وهذا يضعف العلاقات بين الناس وينشر الظنون وينال من الإيمان بالقدر،وحين يصاب الإنسان بفشل في الحياة أو تأخير تحقيق أماني،يسارع إلى اتهام شخص بأنه استعان بساحر ليضره وهذا يعطله عن النظر إلى السبب الحقيقي للمشكلة.

وأخيـرا علينـا أن نتسـاءل عـن السـر فـي شـيوع هـذه الأفكـار عنـدنا وغيابهـا فـي مجتمعـات أخـرى مختلفـة عنـا، فـاختلاف العقليات هي التي وراء سعادة وشقاء الشعوب.

طفلة لأبوين من الصم

لقد بلغت خطورة الانسان أن نبي او عالم او مفكر؛ يُحدث أثرا هائلا مثل القنبلة الذرية، ولهذا نرى أنهم أقل الناس ومعدودين بين البشر، بينما بقية البشر يعيشوا أحسن من الحيوانات، ولكن ليسوا أسعد منهم، فقد أشقتهم النعمة التي لم يحسنوا استعمالها وأهانوها.

أعجبني هذا الفيلم الحائز على أوسكار بعنوان (CODA – طفلة لأبوين من الصم)، يحكي قصة أسرة من أب وأم وابن وابنة، كلهم من الصم عدا الابنة، والصَمَم يلازمه «البكم» فلا قدرة على الكلام، يعملون بالصيد على مركب يملكونه الابنة هي الصلة بينهم وبين العالم، تتحدث معهم بالإشارة، وتترجم كلامهم للناس، وتترجم أيضا كلام الناس لهم، يُرشحها مدرس الموسيقى لمِنحة في أرقى الجامعات لموهبتها في الغناء، وهنا العقدة، كيف ستترك أسرتها للعالم!، يقول لها أخوها: «أذهبي.. على الناس أنْ يجدوا وسيلة لفهمنا»، لكنها تُصر على البقاء معهم.

في أحد المشاهد: «يجلس أعضاء مجلس نقابة الصيادين على الطاولة في صدر الصالة، ويجلس الصيادون على مقاعد في مواجهتهم، يتحدث الأعضاء كلاما غير مقنع يبرر تَبَنّيهم قرارات ضد صالح زملائهم الصيادين، بينما يعلم الجميع أنهم يتربَّحون من منصبهم على حساب الصيادين، يدور حوار عقيم بين الصيادين وممثليهم والابنة تترجم للأب الحوار، ثم فجأة يقف الأب غاضبا ويندفع متحدثا بكلام ويطلب من الإبنة أنْ تترجمه، قال كلاما بليغا وحرا وحكيما، أعجب الصيادين وأيدوه كمتحدث نيابة عنهم»

في هذا المشهد تكون المفاجأة في اكتشاف أنَّ الصيادين – الذين استهانوا بالأسرة الصمَّاء – لم تنفعهم حاسة السمع أو الكلام، اشتغلت حواسهم السليمة ضدهم فزادت في ضعفهم وارتباكهم وحيرتهم، بينما انطلق زميلهم الأصم والأبكم بالكلام مدافعا عنهم، لأنه يمتاز عليهم باحتفاظه بوعيه وكرامته ومنطقه.

وهذا له مثيل عندنا في الحياة، فما أكثر النِعَم والحواس المعطلة عندنا «جسدية ومادية ومعنوية»، ولم تنفعنا لأننا اخترنا لها الإهانة، وأصبحنا نستعمل عقولنا وحواسنا مثل من يستخدم الكمبيوتر في الألعاب واللهو فقط ويَكسل عن استخدام الإمكانات الكبرى فيه، فنحرز أهدافا على الشاشة بينما يشهد الواقع أنَّ الأهداف الحقيقية تدخل في شباكنا وننقلب مهزومين.

* * *

لماذا تُعطلنا وتضلنا الحواس؟، الإجابة ببساطة «لأنّها تعطينا بيانات خاطئة»، ترى الإهانة وبدلا من أن تأمرنا أنْ نرفضها، تُضَخِّم العاقبة وتملأ قلوبنا رعبا فنَجْبن عن مواجهتها مبكرا، وحين ينتشر الجبناء، ترتع الإهانة وأخواتها بلا مقاومة.

الحواس لم تعد أمينة في تبليغ الرسالة وأداء الوظيفة يُذكرني هذا بكلمة الغلاف في كتابي (إكرام الأرملة دفنها):

• نظر الساحر في عيون الناس فسحرهم؛ عدا من أغمض عينيه.

• عزف الساحر على الناي للناس فسحرهم؛ عدا من أغلق سمعه.

• أصبحت الحواس معطلة ومُضللة وأسيرة للسحرة.

• ومدينتنا المسحورة؛ يندر فيها من يملك وعيا.

• وفي قصتنا أشخاص؛ أغمضوا أعينهم وأغلقوا سمعهم واحتفظوا بوعيهم؛ولم يفعلوا مثل الناس.

• وهؤلاء هم الأمل في إنقاذ الناس

***

الذي أعجبني في الأسرة، أنهم رغم صَممهم وفقرهم كانوا نظيفي البيت والعقل واللسان والقلب، كلامهم الأخرس شديد الرقي والنضج، لم أشعر بفرق في الحوار بين هذه الأسرة وأي أسرة أخري ثرية أو مثقفة، أسرة راقية وعاقلة وبلا عُقد.

كم نسبة الأسر التي بلا عقد في بلادنا؟، يندر أن تخلو أسرة بأفرادها من عقد.

لكن هل الأسرة الأوربية والأمريكية بهذا الوعي؟ الجواب قطعا...لا،ولكنهم يدركون أن وظيفة السينما رفع القيم عاليا، وتجسيد الخيال لتلقين الحلم الصالح.

ولهذا، وسط التيار الطاغي من الأفلام الجماهيرية التي تبث «العنف والعنصرية والسحر والعلاقات الشريرة»، تفسح السينما الغربية المجال ، لأنْ ينفلت عمدا في بعض أفلامها «القيم والأخلاق والعاطفة الرشيدة والنفوس الطيبة»، وبهذا يشتغل التاجر وأصحاب نشر القيم بالتوازي بحرية، وعلى الناس أن يختاروا.

***

في أحد المشاهد، حَضَرت الأسرة حفل غناء جماعي تقوده ابنتهم، بينما الحضور مُنفعلون ومُعجبون ويُصفقون؛ كانت أسرتها وسط الجمهور لا تسمع ولا تفهم، فالإبنة ليست بجانبهم لتشرح لهم، شعروا بأنفسهم معزولين

عن الحدث وكأنهم كائنات مختلفة عن بقية الحضور صفقوا لإبنتهم لمجاراة المصفقين، لكنهم كانوا تائهين بين شعور الفخر بها، وعدم فهمهم لمعنى الغناء وحلاوة الكلمة والصوت وطبقاته.

في النهاية نجحت الأسرة في دفع ابنتهم للتقدم لاختبار المنحة، وقفت على خشبة المسرح أمام الممتحنين الذين يجلسون على المقاعد الأمامية للمسرح،تسللت الأسرة للمسرح الخلفي وجلسوا يشاهدوا ويشجعوا ابنتهم،بدأت الغناء بصوت ضعيف بسبب ما يتزاحم داخلها من مشاعر تجاه عائلتها التي لو نجحت فسوف تتركهم يصارعون الحياة بدونها، حين رأتهم امتلكت موهبتها وتَنَفست جيدا وأخذت في الغناء، غنَّت بصوتها للممتحنين، وغنت بيدها للأسرة الصماء، كانت الأسرة حاضرة ومتفاعلة مع الحدث لأنها فهمت الكلمات، وفي النهاية نجحت البنت وفازت بالمنحة ، برع المشهدان في جعلنا نتفاعل مع عالم نبيل محروم من نعمةٍ فَقَدنا إحساسنا بقيمتها، فوجود النعمة يجعل المشاعر بليدة فلا نَحمدها فينا ولا نتعاطف مع من فقدها.

هذه هي وظيفة السينما الحقيقية والإبداع النبيل،السينما سلاح ذو حدين، ونحن كعادتنا نُمسك الأسلحة من الحد الضار ونوجهه في صدورنا ثم نضغط بقوة، فنغتال فينا كل قيمنا الجميلة والنبيلة، بدعوى الواقعية التي هبطت بكل ما فينا من مادي ومعنوي إلى أسفل سافلين.

يذكرني هذا الفيلم الأمريكي بآخر مصري أسمه «لوعة الحب»، بطولة (أحمد مظهر – عمر الشريف – شادية)، البطل سائق قطار والآخر عطاشجي (مساعد سائق)، في زمن القصة، كان القطار يمشي بالفحم فكانت ملابسهم وأجسادهم يختلطا بالفحم لونا ورائحة.

لـو تـم (اليـوم) عمـل فـيلم مصـري بـنفس القصـة والبطـل (سـائق قطـار وعطشـجي)؛ فسـوف نشـاهد البيـوت والنـاس يسـبحون فـي قـذارة وفقـر وفوضـى، تتنـاثر الكلمـات بـين الجميـع فـي وقاحـة وعُـري، ويسـود منـاخ مـن «الغضـب والصـراخ والسـباب والعصـبية والحقـد»، ونـرى النـاس أدوات ذليلـة فـي يـد السـلطة الوظيفيـة والسياسـية، يترنحـون بـين العصـا والجزرة،يسـري بيـنهم سـلوكيات عشـوائية وتنفلـت رغبـات ومشاعر سيئة مكبوتة.

* * *

ولكـن فـي فـيلم (لوعـة الحـب)، فـي السـتينيات، صَـوَّرَ البيـوت مـن الـداخل نظيفـة ومرتبـة وأنيقـة، الكلمـات طيبـة ورقيقـة وحساسـة وتخضـع للـذوق الرفيـع ، أتـذكر مشـهد العطاشـجي مـع زوجـة السـائق حـين حـدث لهـا حـادث وكانـا بالخـارج، فاشـترى لهـا "لـب" مـن البـائع، فكـان العطشـجي يضـع القشـر فـي يـده ليجمعه ثم يرميه في صندوق القمامة بالشارع.

السـينما ترسـل رسـائل فـي منتهـى الخطـورة والتـأثير القيمـي، الزوجـة رومانسـية ومتعلقـة بقطتهـا، حـين صـدمتها قسـوة وجلافـة زوجهـا، لـم ترتكـب خيانـة، بـل قـررت أنْ تصـارحه بطلـب الطـلاق، وحـين تغيـر الـزوج وأصـبح صـالحا، تراجعـت عـن طلـب الطـلاق، فـيلم نظيـف وراقـي وحـالم بواقـع جميـل ويخلـو من مثال الضعف أو الغدر.

* * *

لـو رصـدنا الأفـلام والتمثيليـات المصـرية فـي السـنوات الأخيـرة سـوف نُصـدم بتيـارات جارفـة مـن التـوتر والعصـبية، مغمـورة بسـيناريوهات الغضـب والإنتقـام والعنـف الفـردي، تصـاغ قصـص مظلوميـات وقهـر وحشـية،تُنْبت أحقـاد عميقـة، فتـدور الشخصـيات طـوال حلقـات المسلسـل فـي دوامـات مـن

الحوارات والتفاعلات والعنف اللفظي الذي يحمل لغة ونفسية حقودة وخبيثة، تطارد الانتقام والتشفي والتعذيب السادي، لا تغفر ولا ترحم.

الغريب أن من يشاهد المسلسل يندمج في سلاسل الصراع بين الأفراد ويغفل عن ثغرة خطيرة في القصة، وهي اختفاء دور الشرطة والسلطة،فحين ينشب قتال شوارع شعبي يحاكي سينما هوليود، نشعر كأننا في فيلم هندي أو في عالم خفي عن المجتمع والسلطة معا.

هذه الأعمال السينمائية والتليفزيونية تعزف على غسل أدمغة ونفسية وعاطفة الشباب، فيتشبع هذه المشاعر والسلوكيات، ويتقمص القسوة والتحامل والعنف، فيصبح تلقائي في الانجراف إلى ما يؤذي نفسه ويوتر علاقاته ويفسد حياته.

لا أدري هل هذه الأعمال تنتج عشوائيا لدغدغة غرائز السوق، أم هي أيدي منظمات خبيثة تتعمد تشويه نفسيات وعقليات الشباب، كيف تفسح لهما الساحة بكل هذه الحرية في الإفساد، وفي نفس الوقت تندر الأعمال الفنية التي تزرع القيم وتنشر الإصلاح.

المدهش أنّ من يقود هذه النوعية من الأفلام اليوم هم أكثر الشخصيات المحترمة والتي لها رصيد من الأعمال الرائعة والناجحة، لا أجد إجابة تبرر هذا الانحدار، فأتساءل عن القوة الطاغية التي جعلتهم يتحولوا لفتوات العصر الحديث، وهل ما حصلوا عليه من مال يمكن أن يعوض التدمير القيمي الذي تم بثه في أفلامهم ومسلسلاتهم؟، وهل سيستطيعوا الصعود ثانية بعد هذا الهبوط السحيق؟، وهل سيسامحهم الجمهور.

حُسْن الخِتَام

حكى الواعظ في خطبة الجمعة، قصة «رجل توفي بأن انزلق فسقطت رأسه داخل قاعدة دورة المياه، وذكر أنَّه كان في حياته يتعامل بالربا،وأخذ يُحَذِّر من سوء الخاتمة».

تذكرت صديقي حين قال لي يوما أنَّه (حزين على والدته لأنها توفيت ووجهها مُتجهم وغاضب، وأنَّه يخشى أن يكون سوء ختام، رغم أنه لا يَعرف عنها سوى الصلاح) وسألني: «هل هذا يعني أنها ارتكبت خطايا لا نعرفها فساء ختامها حين ماتت؟»

فطمأنته إلى أنَّ أمه عانت زمنا طويلا من الألم والمرض وشحبت وهزلت،وما رآه ربما أثر الألم في وجهها فتجمدت ملامحها على هذا الشكل الذي أفزعه، وذكرت له أنَّ هناك من نعرف عنهم سوء العمل والسيرة ومع ذلك يموتون في فراشهم في سلام بوجه ملائكي، وهذا الاعتقاد لا يمكن اثباته، فلو قام أحد بتصوير شخصيات يُشتهر عنها الصلاح وأخرى يشتهر عنها الضلال والشر، فلن يستطيع اثبات فكرة حسن وسوء الختام، وسيرتبك نتيجة التناقض الكبير بين ما يعرف عنهم وما يرى في الصور، ثم أنهيت كلامي بالقول: «اللّه يستر عباده، فهل تتصور أن يستر الإنسان طوال حياته ثم يفضحه في مماته» ، إنَّ أسلوب الحكايات الذي نتلقاه في الخطب يؤثر فينا ويزيد في تخلفنا الذي لا قاع له، فنحن شعب ساذج ومتواضع الوعي والثقافة ولا ينقصنا مزيد من قصص ألف ليلة وليلة.

ولهذا أفَضِّل ولو مؤقتا أنْ يَصدر قرار بتوحيد الخطبة، بأنْ يكتبها عالم دين فقيه وأديب وموهوب، لنتخيل خطبة كتبها عالم الدين، بدعم من فريق مكون من علماء

«الاجتماع والفلسفة والتاريخ والنفس والطبيعة وبقية العلوم»، تهدف هذه الخطبة إلى تعميق الإيمان وغرس القيم وتنوير العقل، يقرأها كل خطيب أمام الناس في المساجد، ثم يصلي بهم، وبهذا نفوز بخطبة مفيدة للناس، ويسمعها الملايين، ونتأكد أنَّهم لم يسمعوا ما يغرس فيهم التخلف، ويتعلم الناس الإنصات لكلمات تقرأ على أسماعهم،وتكون خطبة الجمعة درس الأسبوع الذي ينتظره الناس.

* * *

من مات ساجدا في المسجد لا يَضمن ما نعتقده من حسن الختام، فربما ارتكب من الأعمال الظالمة ما يثقل ميزانه وخاصة أننا في هذا الزمان،نرى التدين بالانضمام للفرق الصوفية أصبح خيار كثير ممن نعرف فسادهم المالي والسياسي، فساحة التصوف تسع الجميع من الصالحين والطالحين، وأغلب الظلمة والمسرفين يرددون البيت الشهير الذي لا أوافق عليه.. «أحب الصالحين ولست منهم عسى أن أنال بهم شفاعة»، وكأنه يقول أنا فاسد وظالم وربما قاتل، ولكني أتشفع لك يا إلهي بحب الصالحين، فاحشرني معهم!.. فهل هذا معقول!.

حسن الختام وسوء الختام اختراع يزيد في سذاجتنا ولا يعمق الإيمان،بل يجعله سائلا، ولهذا علينا أن نكف عن التطفل على مصير الناس الأخروي، ونترك الحساب ليوم الحساب، ونقتصد في غرس دعوات الموت في دعائنا ونكثر من الدعاء بالحياة الصالحة والمُصْلِحة.

علينا أن نَشغل أنفسنا ب «حسن العمل وحسن النية وحسن المعاملة وكل ما يصب في جودة الحياة وسلام العلاقات وتوالي الإنجاز»

* * *

نحن نستهين بأثر هذه المعتقدات فينا، رغم أنَّها تلقن شبابنا أحلاما خاطئة وضالة، ولو فتشنا في غالب الدعاء في الصلاة لاكتشفنا أنَّه يصب في كفة الموت أكثر من الحياة «دعاء حسن الختام وتهوين سكرات الموت والنجاة من عذاب القبر والستر في الدنيا والآخرة وبقية الدعوات التي تستعرض سلسلة رحلة الآخرة»، أما دعاء الدنيا فلا يتعدى «رزق ونجاح وزواج وستر وبقية مفردات من حظ النفس».

* * *

هناك ظاهرة مدهشة في المسلمين وغير مفهومة فالاستجابة للدعوات التي تحت شعار الجهاد والموت في سبيل اللّه تجد دائما من يستجيب لها من الشباب بإخلاص بينما دعوات الحياة في سبيل اللّه لا سوق لها ولا يفهمها المسلمون، حتى أنَّ مصطلح «آمنوا وعملوا الصالحات»، لم يأخذ حقه من الشرح والفهم والتطبيق، فالصالحات في أغلب تفسيراتها تصب في صدقات وفضائل فردية وطقوس شعائرية وترَقٍّي سلوكي، لا يوجد في تفسير الصالحات دعوة لمقاومة المجتمع للظلم والفساد، أو دعوة لتحصيل علم مادي يفيد البشر ويزيد في جودة الحياة، وهذا تناقض كبير، كيف نفهم سهولة إقبال شباب على الموت في سبيل اللّه بينما لا نجد شباباً يتعاونون في مقاومة رشوة أو ظلم أو قهر؟، رغم أن عاقبة وغرامة مواجهة الفساد في المجتمع اقل بكثير من الموت، وخاصة حين تكون المواجهة جماعية، ويتصدرها بعض المتقين الحريصين على صلاح المجتمع،من الملاحظ أنَّ فهمنا للدين يرتكز ويتكثف في الفرد والأسرة،ولا يشتغل خارج البيت في المجتمع إلا بسهم قصير وقليل.

لقد تدربنا وتبرمجنا دينيا ومجتمعيا على أن تحمر وجوهنا وتندفع الدماء في عروقنا حين نشهد ما نعتقد أنه يمس الدين أوما نسميه العِرض والشرف،فمن يَذكر نساءنا بسوء أو يرتدي خاتم ذهبي أو يتلفظ بكلمات تمس الاعتقاد، سوف يجد من يندفع للتصدي له دون حساب للعواقب، ولكننا في معاملتنا اليومية نرى من يحابي أقرباءه أو معارفه أو يتلقى رشوة تمكنه من تخطي دوره، ومع ذلك لا يتكلم أحد، ولا نشعر بالإهانة، لأنها أصبحت من طبائع الحياة عندنا، نعتبرها خارج النص الديني، لا يوجد مسلم يعتقد أنّ عليه التصدي للرشوة أو للفساد، ولهذا نحن جبناء وسلبيون بامتياز أمام فساد المجتمع، والفرد بلا ثمن ولا كرامة، وسر هذا الجبن يرجع إلى أننا تبرمجنا على قيم مرتبكة، تتضخم قيم المظاهر والقشريات وتتضاءل قيم الجواهر والأصول، فتسفك الدماء هدرا في غير موضعها.

* * *

القَسَم بالمخلوقات مزدحم في القرآن الكريم «وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا – لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ – لَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ – ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ-لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ..إلخ»

حتى وقت قريب، هناك مجتمعات حين تُقسم بشيء مقدس، تُقسم «بشرفها – كرامتها – نزاهتها – الأب والأم»، وهؤلاء واقعيون، يُقسمون بقيم مقدسة منظورة تساعدهم على الثبات أمام إغراءات الشرور،فهناك من يرى شرفه في «التزامه في حياته المهنية، الصدق، الأمانة، حفظ الكرامة، صيانة العهد، الوفاء.. إلخ».

هـذه القـيم هـي جـوهر قـيم الإسـلام، ولكنهـا لـم تصـبح نصوصـا وأدوات للقسـم عنـدنا، بعـد أن جـاء مـن يُفتـي بـأن لا نقسـم إلا بـاللّه وإلا أصـبحنا مشـركين، وأرى أنَّ هـذه الفتـوى نَزَعـت مـن لسـاننا قيمنـا الماديـة والمعنويـة والتـي تسـاعدنا علـى الثبـات فـي حفـظ الـنفس مـن الانحـراف والضـلال،فالواقع يشـي بـأنَّ أغلبنـا اليـوم، لا يقسـم إلا بـاللّه، ومـع ذلـك تمـر الرشـوة والظلـم والفسـاد بـين أيـدينا، وتنتهـك كرامتنـا ونزاهتنـا وضـميرنا أمـام أعـين الجميـع، فهـل نفعنـا أننـا لا نحلـف إلا بـاللّه، فهربنـا مـن شِـرك متـوهم ووقعنـا فـي ذنـوب بلا عدد.

أعتقـد أن مـن يحلـف بـرأس أبيـه أو كرامتـه ثـم يلتـزم بهمـا خيـر ممـن يحلـف بـاللّه ويحيـا كإنسـان مَخْصـي فـي الـدنيا بـلا كرامة ولا غيرة إلا على قِشريات.

المبالغـة فـي المِثـال رفعتنـا عـن الأرض فـلا بلغنـا السـماء ولا لمسـنا الأرض،تـدیننا طوبـاوي وقيمنـا أشـبه بقـيم «دون كيشـوت» النظريـة والمنعزلـة عـن الواقـع، أصـبحنا أبنـاء المـوت والآخـرة بـلا عمـل يسـتحق، وفشـلنا فـي رحلـة الـدنيا وبعـدنا عـن المعنى الحقيقي للصلاح والإصلاح والصالحات.

***

يحكـي المستشـار الأسـري «جاسـم المطـوع» أنـه أثنـاء عملـه بالقضـاء، جاءتـه سـيدة سـبعينية تطلـب الطـلاق مـن زوجهـا فـورا، وحـين أصـر علـى معرفـة السـبب، أخبرتـه أن زوجهـا بالمستشـفى ينتظـر المـوت، وهـي لا تريـد أن تكـون زوجتـه فـي الجنة.

هـذه حادثـة حقيقيـة، ولا يجـب الاسـتهانة بهـا أو اتخاذهـا كقصـة للتنـدر،فنحن تركنـا الـدنيا لنتطفـل علـى الآخـرة بأخبـار تقيـد الإنسـان بحبـل مـن الـدنيا، وفـي الآخـرة مـا لا عـين رأت ولا

أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ومع ذلك نفرض ذكوريتنا على المرأة في قصصنا عن الدار الآخرة، والآخرة حرية.

* * *

حسن الختام الذي نبحث عنه يشبه اليانصيب،مقامرة،بينما الختام هو حصيلة الرحلة كاملة، الختام حين نتلقى كتابنا باليمين، ولا نتلقى كتابنا باليمين إلا حين نكون مُصلحين،صلاح الدنيا والعمل الصالح هو عملة الإنسان المسلم.

حُب البنات

اسم فيلم مصري ناجح ويُحبه كثيرٌ من المصريين، ثلاثة شقيقات، كل منهن من أم مختلفة ولكنَّ الأب واحد، عندما يتوفى الأب يترك لهن ثروة كبيرة، فشل الأب أثناء حياته في السيطرة على مشاعر الغربة والنفور بين بناته، فكانت محاولته الأخيرة، أنْ كتب في وصيته شرطا حاسما، ألا توزع الوصية إلا بعد أن تسكن البنات معا في بيت واحد لفترة زمنية محددة.

أثار هذا الفيلم أفكارا عندي وأشجان؛ من أبطال الفيلم الفنانة «حنان ترك»، مختلفة عن الممثلات صارخات الجمال والأنوثة، فنانة تعتمد في 99% من آدائها على المهارة والموهبة والروح وليس الجسم والشكل،ونجحت في التسرب إلى قلب الجمهور بعد رحلة طويلة، ثم تدينت واعتزلت، حَزِنت لقرارها الاعتزال وتعجبت، هل عندما تتدين تعتزل!، تضحي برصيدها من تقبل الناس لها وخبرتها فتعتزل!، لماذا لا تستغل هذا التدين في نشر الفضيلة والقِيم والخير والجمال والإصلاح؟.

نفس الشعور وأكثر منه جاءني حين اعتزلت الفنانة «سهير البابلي» التي جاءها النضج متأخرا وأبهرت الجمهور بمسرحياتها الاستثنائية.. «العالمة باشا – عطية الإرهابية – على الرصيف (أعظم المسرحيات في تاريخ مصر)»، اعتزلت بعد أن تدينت!، هذه حيلة خطيرة من الحيل التي وقعنا فيها نتيجة مفاهيم خاطئة عن الدين فتركنا الساحة وكل الساحات لغير المتدينن وغير الأخلاقيين، ثم بعد ذلك نشتكي من الظلم والمؤامرة ومن تدهور كل شيء، نحتاج أن نعالج أفكارنا الساذجة

والدرويشية لأنها تجعلنا نهدر أثمن ثمار جهدنا، مثل من يتعب حتى تلمع الثمرة أمام عينيه،ثم يقطفها ويخزنها في مكان رديء فيُسرع بتلفها وخسارتها.

في الفيلم، كان الحل الذي قرره الوالد في لحظة يائسة قبل وفاته عبقريا،أراه يحتاج تفكير عميق، فربما كان فيه حلولا شعبية وليس فقط لهذه الأسرة.

* * *

لو اخترت عنوانا للعلاقات بين أفراد الشعب المصري، سوف أجعله: «دوائر بلا أسنان»، والمعنى المقصود أنَّه: «يَسود بين المصريين مشاعر الاسترخام والتَوجس وسوء الظن وكأنهم أبناء الضَرائر».

في المؤسسات لا بد من التفاعل بين الزملاء في العمل تحدث عمليات متتالية من الانفعالات بينهم، قد ينقبض أحدهم من الآخر.. يسترخمه .. يظن أنَّه يدبر له مكائد.. يعتقد أنَّه حاقد وخبيث .. يَظنه منافسا له .. أو .. لا يعجبه طريقته في الكلام .. وربما سِحْنته تسبب له عَكننة مزاج .. أو متأنق بزيادة فيثير غيرته.. وخاصة حين يتصنع الظرافة أمام الزميلات ويثير ضحكاتهن رغم أنه ثقيل الدم!.

الأسباب كثيرة فالنفس البشرية «المصرية» عميقة ومُعَقَّدة ومكبوتة بكافة أنواع العقد.

ينتج من هذه الانفعالات الداخلية والتفاعلات الخارجية مشاكل وعراك، ولكن لا يخطر ببال أحدهم أنْ يترك العمل، فترك العمل يعني قطع الرزق وأزمة مالية وأسرية، ولولا هذا القيد، ما عمل أحد في بلادنا مع أحد، ولأصبحنا مثل الرمال في الصحراء.

ولكن؛خارج العمل والمصلحة يكون المرء حرا على طبيعته فيخضع لهذه المشاعر المتهورة والسيئة سريعا، والنتيجة

أنَّ الأقارب ... الجيران .. الأخوة بعد زواجهم .. الكل، يتباعد في عملية لا تتوقف طوال الحياة،نحن عندنا قدرة «سوبرمانية» على اكتشاف فيروسات الظن في الآخرين جهاز استشعار الخطر يعمل بكفاءة عالية ويشطح بجنون ولهذا نحن نتباعد مثلما يتباعد ويتسع الكون في حركة للخارج.

فما الحل؟

* * *

كتب الأب في وصيته شرط أن يجمع الثلاث أخوات بيت واحد لمدة عام، والميراث كبير ولا يمكن التضحية به، والبنات معزولات شعوريا ومتحفزات نفسيا ويثقل عليهن هذا الشرط، فكل «أم» قامت خلال سنوات طويلة، بسكب سموم حقدها على الزوج، في إناء ابنتها، ولكن الذي حدث أنَّ الوصية تسببت في معجزتين.

الأولى: حب وترابط وتفاهم وصداقة بين الأخوات الثلاثة.

الثاني: شفاء قلب وصدر البنات مع حلحلة العُقَد والمشاكل الخاصة بهن.

كل بنت وجدت طريقها وعرفت نفسها، وتحول الجميع من ثلاثة تعيسات إلى ثلاثة سعيدات.

وشكرا للشرط الذي أجبر الجميع على تذوق الدواء المر والشافي.

التباعد البدني والنفسي يزيد المسافات والمشاعر السيئة والظنون، مشكلة المصريين والعرب هي نفس مشكلة بنات «أبو حَجر» في الفيلم، نجهل أنَّ «الفهم والتفاهم والتعاطف والعذر والتغافل والمسامحة .. إلخ» .. هم ثمرة القرب، ولكن كيف نجمع المصريين كلهم في منزل واحد

لكي ينالوا بركة التعارف المؤدي إلى حسن الظن والتفاهم والحب!

نحن نتعامل مع المشاكل بكبرياء مبالغ فيه، وكأنه مثل «شرف البنت الذي مثل عود الكبريت»، بمجرد أن تحدث أي مشكلة أو سوء تفاهم نتيجة الاحتكاك، يقفز المرء واقفا ويغادر ولا يعود، وبينما يولي ظهره يتردد بين شفتي الآخر صرخة وقحة أو جبانة قائلا: «في ستين داهية»

نحن نريد حلا يجبر الناس أو يقنعهم بتحمل ثمن الإصرار على التعامل،فالإصرار يبث من الدفء ما يذيب كل شر بين الناس ويكشف الخير فيهم وبينهم.

* * *

قال لي صديقي: «سوف أحرص على أن يسكن كل ابن وبنت لي في مدينة مختلفة، فما عانيته من نكد وشجار وفك اشتباك ومشاعر سيئة بين إخوتي وزوجاتهم وأزواجهم وأمي، حين جمعتنا عمارة سكنية واحدة وبلدة واحدة، لا يمكن أن أكرره في أولادي، فليتباعدوا حتى يحتفظوا بالحب والسلم بينهم».

نظرت إليه بإشفاق وقلت له: «الحلول التي تنشأ عن رد فعل هي انتقال من طرف إلى طرف، فاحذر التطرف» ، المسافات بين البشر تحتاج رصد وتجارب وتسجيل لنتائجها.. ثم إعادة تجربة مسافات أكبر أو أصغر بحسب النتيجة، ونظل هكذا حتى نتوصل إلى المسافة الأقرب للأمان والسلامة في العلاقات.

المسافة بين الزوج وزوجته.

المسافة بين الأب وأولاده.

المسافة بين الأم وأولادها.

المسافة بين الأقارب.

المسافة بين السلايف والأنسباء.

المسافة بين الموظف وزميله.

المسافة بين المدرس والتلميذ.

مسافات ومسافات بلا عدد في العلاقات .. هذه المسافات تختلف باختلاف البلاد والمجتمعات ونوع العلاقات، ومما لا شك فيه أنها تشتكي المبالغة في التقارب في مجتمع «العرب»، وتشتكي من المبالغة في التباعد في المجتمع «الأوربي»، فلكل مجتمع أمراضه، وفي المجتمع «العربي» يؤدي الإفراط في القرب إلى المشاعر السيئة، وفي المجتمع «الأوربي» يؤدي الإفراط في البعد إلى المشاعر الباردة والمعزولة، والنتيجة «عربيا» هي نكد الفرد والمجتمع والنتيجة «أوربيا» هي مشاعر الوحدة ونقص مذاق الحياة.

* * *

عندما كان يدرس «عبد الوهاب المسيري» في أمريكا، تراهن مع أستاذه؛ أنَّ الحرية المبالغ فيها في أمريكا، سوف تؤدي حتما لشيوع المثلية والعلاقات الشاذة، وعارضه أستاذه الأمريكي بأنَّ؛ هذا ينتج فقط بسبب الكبت والمبالغة في العزل بين الرجل والمرأة، وأنَّ الأولى بهذه النبوءة المجتمعات الخليجية التي تبالغ في العزل بين الرجل والمرأة في المسافات واللباس.

فرد عليه "المسيري" قائلا: «أي مبالغة سواء كانت في المنع أو الإباحة لا بد أن تؤدي للتطرف»....

وكسب "المسيري" الرهان... فما نراه اليوم في تسويق وفرض الشذوذ بالعالم وراءه أمريكا صاحبة تمثال الحرية.

أتذكر حوارا بيني وبين أحد الأصدقاء في الخليج؛ حينما اشتكى لي من مشاكل عديدة وخطيرة تنشأ نتيجة عدم حرص المرأة المنقبة عندما تهبط من العربة، فمجرد ظهور جزء يسير من القدم أو الساق يعني شجار حامي وعنيف وربما يمتد إلى قرارات قاسية من الزوج أو الأخ أو الأب تجاهها، وفي جانب آخر شكى لي ظاهرة الميل العاطفي في المدارس بين الطلبة من الجنس الواحد، فاختفاء الجنس الآخر تسبب في اضطراب عاطفي خطير.

في الحالين كان هناك تطرف في مساحة الحرية في أمريكا وفي بلاد الخليج، ولهذا هي دائما مشكلة مسافات ومساحات مفرطة في القرب أو البعد .. المنح أو المنع...وهذا شغل علماء الإجتماع... هم الذين يجب عليهم التصدر لضبط هذه المسافات والمساحات بين الناس، ويكون شغلهم مثل من يقوم بتقصير الثوب مرة وتطويله مرة أخرى حتى يصل إلى المقاس المناسب.

من المدهش أننا حين نتوصل إلى اختراع بدائي ميكانيكي أو كيميائي نقوم بتجارب كثيرة للتحسين والجودة، ونوالى رصد وتسجيل النتائج حتى نصل إلى المنتج الأخير، مثل السيارة بين بداية اختراعها إلى شكلها النهائي اليوم، عمليات متتالية ولا تتوقف، من التجربة والتحسين، فلماذا لا نمارس نفس العملية في حياتنا المجتمعية، فنجرب ونرصد ونسجل ثم نصل لنصيحة خير للمجتمع، ويتم تطبيقها تحت عيون رجال علم الإجتماع وتستمر العملية حتى نقترب دائما من تحسين جودة العلاقات ويُسر الحياة وصلاحها.

الهويات الانشطارية

يقاس نجاح وتماسك الدولة الحديثة؛ بقدرتها على إذابة الهويات الطائفية والقبلية والعِرقية فيها، يحكي المؤرخ "عبد الرحمن الرافعي" أنّ "محمد علي" بعد أن قام بمذبحة المماليك التي قضى بها على القوة العسكرية المنافسة،وبعد أن تخلص من "عمر مكرم" شيخ الأزهر وقائد الثورة الشعبية على الفرنسيين، قرر نزع الأسلحة من الأفراد في مصر، لم يكن التطبيق سهلا، فالقبائل والعرب البدو كانوا القوة الحقيقية، ويعتبر السلاح شرفا وكرامة شخصية لحامله، ولهذا كانت المقاومة شديدة، لكن في النهاية نجحت الدولة في بسط سيطرتها ونزع الأسلحة من دلتا مصر،ومن أجزاء كبيرة من الصعيد وخاصة المدن والقرى، وبهذا تحقق أول شروط الدولة الحديثة وهو "إحتكار الدولة للعنف"، وهذا الشرط له إيجابياته وسلبياته لأنه يُخضع الكل للسلطة المدنية ولكن لا بد من أن يوازنها نظام سياسي قادر على تقييد تلك السلطة ومحاسبتها حتى لا تطغى.

كانت المدن من أهم البيئات الحاضنة للدولة المدنية يهاجر إليها القرويون، وتتكون الأسر الفردية المحدودة التأثير، فتضعف الرابطة بين الأسر وأصلها في القبيلة أو العائلة الكبرى، ويصبح تدريجيا الولاء والخضوع للدولة أقوى، وتستقر في اللسان والخاطر والعرف؛ كلمة "الدولة" مكان القبيلة أو الطائفة.

تكوين الدولة يحتاج خطوات ووقت ولكن الإنهيار يكون سريعا،وأسرع طريقة هي انحسار الولاء عن الدولة إلى

الهويات الأولى، وسيكون الإنهيار أسرع حين تتكون هويات انشطارية جديدة تنتشر كالسرطان في المجتمع.

* * *

خرج الإستعمار من مصر وحكمها أبناؤها، وكان من المتوقع النجاح الكبير، في العهد الناصري نجحت الدولة في إذابة الشعب في الدولة الوطنية، يرجع الفضل إلى الجهاز الإعلامي "راديو وتليفزيون" الذي نشر الأهداف الوطنية ولقَّنَهم المبادئ والأحلام .. "العروبة، تحرير فلسطين،الأخذ بالعلم، كرامة الإنسان، المبادئ الإشتراكية، العدالة الإجتماعية، الصناعات الوطنية.. الخ".

وطالما الأحلام مازالت ساخنة، فلا يهم، تظل الشعوب ملتفة حول الدولة المدنية كراية جامعة، تذوب تحتها كل الهويات، مهما كانت المصاعب والأخطاء والهزائم الفادحة، فظلت الهوية المصرية والعربية تظلل الكل، ولم يكن هناك صوت نشاز يذكر فروقا بين المسلمين والمسيحيين.

* * *

في كتاب جلال أمين؛ "ماذا علمتني الحياة"، قام بنقد "ناصر" بقوة، ثم عرج على عصر "السادات"، فكانت المفاجأة أنه اعتبر أخطاء ناصر صغيرة مقارنة بخطايا عصر "السادات" الذي أصدر قراران تحت ظروف محلية وعالمية تؤثر على نسيج وهوية الشعب.

الأول: تقديم نفسه كرئيس للمسلمين، وتلى ذلك أحداث أشعرت المسيحيين بتهديد لهويتهم الدينية، فأصبحت مصر ساحة صراع بين الأديان والأيدلوجيات،وقامت كل طائفة بالإرتداد إلى الخلف لتتحسس طائفتها، وبالتالي تنسلخ أو تتخفف من هوية الوطن الجامع.

الثاني: تمييع الثوابت والأهداف العليا التي حاربنا في سبيلها، فخرجنا من راية العروبة إلى راية مصر الفرعونية وانفتحنا على الغرب بدون مقدمات واشتهر بين الناس مصطلح المفكر "محمود السعدني" – انفتاح سداح مداح – ثم صالح الصهاينة، فذاب طعم نصر اكتوبر وكانت النتيجة هي تيه الأفراد والطوائف.

أصبح ما يهم المسلم هو الهم الإسلامي فقط، ولم يعد الإسلامي شيئا واحدا، بل أصبح جماعات وفرق، فتولدت طائفيات داخل الطائفة الواحدة، وأصبح أيضا ما يهم المسيحي هو الهم المسيحي فقط، وهكذا بقية الأحزاب والإتجاهات في مصر، اليسارية والقومية والعلمانية،فتغيرت خريطة الشعب المصري وأصبحت كل طائفة في جزيرتها .

أما عصر "مبارك" الذي تجاوز الثلاثين عام، قد لخصه مشهد في فيلم – مرجان أحمد مرجان – "عادل إمام:"

حينما وقف "رجل الأعمال وعضو الحزب الوطني" مع رئيس الجامعة أمام مشروع أرض الجامعة، أخبره أنه سيقيم مسجدا للصلاة وأمامه صالة ديسكو، وهناك محلات لبيع ملابس المحجبات، ولكي لا يتظاهر الطلاب بالخارج، سوف يقيم ساحة للتظاهر، وسوف يرتدي بعض الموظفين ملابس الأمن المركزي، وبهذا يكون "زيتنا في دقيقنا."

هذه وصفة تثبيت الطائفية، والإستفادة منها في تثبيت الحكم، فيعطي مساحة لكل طائفة لتتواجد، مساحة لا يوجد بها إلا هامشا بسيطا للتمدد، تتلهى كل طائفة في تلك المساحة وتعيش في وهم الإنجاز، وأن ليس في الإمكان أبدع من هذا، في نفس الوقت يخوف كل طائفة بالأخرى، يضع في قناعتها أن السلطة هي الحامي الوحيد

مـن بقيـة الطوائـف، هـي التـي تمتلـك اللغـة الخاصـة بالتحـدث مـع كـل طائفـة، فـتظن الطائفـة أن لهـا دلالا علـى السـلطة وأنها تنال الجزء المفضل من الكعكة.

ولكـن ذلـك العهـد أنـتج مـا هـو أفـدح مـن ذلـك، الطوائـف الصناعية والسرطانية، طوائف «أبناء العاملين».

* * *

طالمـا ميـزان العـدل مختـل؛ فتشـكيل الطوائـف السـرطانية يتكـون علـى قـدم وسـاق، فعنـدما يمـوت الجسـد؛ تـنخفض حرارتـه، مـن أيـن تـأتي كـل تلـك الديـدان لتنهشـه بالكامـل؟ تكـون موجـودة مـع الإنسـان وهـو حـي، لكنهـا لا تـتمكن منـه ولا تـؤثر فيـه؛ طالمـا يحـتفظ بحرارتـه، لكـن بمجـرد الإنهيـار وسـكون الـدماء، يُلـتهم الجسـد فـي وقـت يسـير، يصـبح المرحوم فلان.

انتشـار الطائفيـة مثـل الـدود، لهـا وجـود فـي المجتمـع، لكـن وجـود محايـد أو إيجـابي، بـرودة الجسـد المجتمعـي بـالظلم وعـدم الشـفافية، يفـرز ديـدان الطائفيـة فتتكـاثر وتنمـو وتهدد الجسد بالهلاك.

نجـح جماهيريـا فـيلم «فبرايـر الأسـود»، فـيلم تـاريخي، لا يحتـاج لمزيـد توضـيح،يتحدث عـن أقـوى الطوائـف الحديثـة التـي يجـب الإنتمـاء إليهـا والإحتمـاء بهـا، "وناسـبنا الحكومـة"، الطوائـف الحديثـة، أو طوائـف أبنـاء العـاملين، تكونـت بطريقـة سـرطانية، فأصـبحت مغلقـة علـى عـائلات، تـرى عائلـة واحـدة؛ كافـة أفرادهـا يعملـون فـي طائفـة مهنيـة واحدة؛الجيش،الشـرطة، القضـاء، البنـوك، الفـن، الفـرق الرياضـية،الكهرباء، شـركات البتـرول، السـلك الدبلوماسـي الجامعات الخ.

أصبح هناك فلتر للوظائف، مازال يضيق حتى تكاد تصبح كل وظيفة طائفة وحدها وعائلات وحدها. غالب من فيها أولاد جنس خاص بهم،أولاد المحظوظين.

* * *

نحن كمسلمين نكثر من كلمة الحمد للّه على نعمة الإسلام وكأن تلك النعمة هي التي أختصنا اللّه بها عن بقية الخلق، ولم نبذل جهدا في أن نصل لتلك النعمة والمسيحي يحمد اللّه على نعمة المسيحية، المنتمي لجنس أو طائفة يحمد اللّه على تلك النعمة وكأنها حظ أختصه اللّه به وعليه التمسك به والشعور بالتفوق على الآخرين بحظه.

نشأ نفس الشعور بالطائفة الحديثة، الكل يحمد اللّه على نعمة الجيش أو القضاء أو البنوك أو الإخوان أو السلفية أو الفن الخ، هذه مشاعر أطلقت عليها تعريف «نفسية شعب اللّه المختار».

نفسية تلبست كل طائفة تظن أنها محظوظة وتستحق حظها، حتى في الزواج، ضحكت الدنيا على كلمة الإخواني لا يتزوج إلا إخوانية، في حين أن الواقع أنَّ كل الطوائف أصبحت تقوي طائفتها بالمصاهرة، من يرصد خريطة المصاهرة في مصر، يجد أن المصاهرة أهم وسائل تحصين الطائفية واندماج الطوائف،انتشرت الأنانية والانعزال الشعوري بين الطوائف؛عندما يبتلى فرد في الطائفة، أو يحدث لها حادث يمسها كجسم فريد، تتألم الطائفة وحدها، وتنزعج، وتقيم الدنيا ولا تقعدها، وتريد أن ينكس العلم المصري وأن يوضع شريط أسود على شاشة التلفاز من أجل هذا الحدث الخاص.

بينما الطوائف الأخرى تستنكر وتتعجب من تلك المبالغة وربما تنظر بشماتة الحاسد، تظن أن تلك الطائفة نالت أكثر مما تستحق.

وعندما يحدث حادث يصيب الوطن الأم الجامع لكل الطوائف؛ تكون الانفعالات أقل بكثير من مستوى الإنفعال الطائفي.

في المبنى الكبير، عندما يقوم كل ساكن بإحداث تعديلات في شقته،ويزيل أعمدة رئيسية، حتما سوف يأتي يوم ينهار البناء على من فيه.

وعندما يصيب السرطان الجسم لا يستثني جزءا منه يستحيل أن نتخيل أن هناك جزء محصن.. هذا وهم.

كل الطوائف قد تكون ظاهريا متماسكة وقوية، لكن "تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى".. هذه سنة الحياة.

فكما تكونت الطائفة تتكون داخلها ميكروب من الطوائف الصغيرة، فيصبح البأس شديد بينهم، وسوف تأتي لحظة تتحرك صخرة صغيرة جدا من البناء فينهار.

وفي خضم كل هذا ننسى أكبر طائفة أصيلة في المجتمع. "الحرافيش"؛هذه الطائفة المفعول بها، والتي يستقطع منها دائما المميزات التي تذهب لبقية الطوائف المحظوظة، حتى يكاد لا يتبقى ورقة توت تستر.

هذه الطائفة المهملة والمستهان بها والتي إن لم نتدارك الأمر وننشر الشفافية والسلم المجتمعي، سوف تقلب الطاولة على الجميع بقوة لا تقاوم،ولن يسترضيها شيء..

الخـــوف أنَّ هبـــة الحـــرافيش ســـوف تكـــون بـــلا عقـــل ولا رؤيـــة فيخسر الجميع.

المشـــكلة فـــي اســـتحالة إقنـــاع أحـــد بخطـــورة هـــذا الانشـــطار الطـــائفي الـــذي لا يتوقـــف عـــن الانقســـام، فـــدفء الطائفـــة المتـــوهم يجمـــد العقـــل والخيال،وينســـى الجميـــع أنهـــم علـــى ســـفينة الـــوطن، والطائفـــة هـــي ثقـــب فـــي الســـفينة، وبقـــدر الطوائـــف يكـــون عـــدد وإتســـاع الثقـــوب، وهـــذا خطـــر يطـــول الجميع.

أزواج وزوجات

ما هذا الكم من الخلافات بين الأزواج؟ والضباب الذي يتكثف في سماء الزوجين؟ أعتقد أن نسب الطلاق المعلن والطلاق العاطفي لم يسبق أن بلغت هذا الرقم الذي تسجله أجهزة الإحصاء اليوم.

أتخيل من ينام ويقتحم أذنه صوت ميكروفونات من كل المنازل المجاورة، هل تهنأ له معيشة أسرية وحياة زوجية؟ أعتقد أن أكبر أسباب الفشل في العلاقات الزوجية من خارجها، ضغوط صاخبة بلا عدد.

لم تعد الحياة فيلم أبيض وأسود، نحن نحيا فوضى في كل اتجاه وفي كل مناحي الحياة، أنا فوضى وانت فوضى وأهلنا فوضى وتعليمنا فوضى ومؤسساتنا فوضى وإعلامنا فوضى وطعامنا وشرابنا وهواءنا وحياتنا ومشاعرنا وخواطرنا وافكارنا وأهدافنا ووو....!

الفوضى تخترق الجميع. وحين يحدث هذا يجب أن يتعاون الناس على تنظيم تلك الفوضى ومواجهتها، والأولى أنْ نسرع معا إلى المحابس الرئيسية للفوضى فنغلقها ولكننا للأسف نختار الخيار الأفدح الأناني، أن يواجه كل منا نصيبه من الفوضى وحده ثم يفشل وحده ويتألم وحده ويصبح الفشل هو الأصل، فشل علني وفشل أسفل الجلد.

آن الأوان لنراجع كل عاداتنا وأفكارنا ومعلوماتنا عن الزواج لقد أصبح الزواج وخاصة للمرأة مغامرة خطرة تشبه تجربة الهجرة لأوربا في قوارب الموت، فمن يهاجر في مراكب الموت يعلم أن الأمل قليل ولكن لو نجا لدخل جنة أوربا.

* * *

يحتاج المجتمع المصري أن يغير نظرته الطبقية للبكر والثيب، فكون المرأة بكرا أو ثيبا لا يؤثر على سعادة الطرفين أو سلامة الأسرة، هناك في كتاب القدر رجل أو أمرأة عندهما مؤهلات سعادة الطرف الآخر بغض النظر عن كونها بكرا أو ثيبا.

نحتاج شجاعة وعمقا في مناقشة مشاكل الأزواج الحقيقية ومن أفضل الأمثلة لذلك فيلم "سهر الليالي" الذي يمثل قفزة شجاعة في مواجهة أحد أسباب شقاء الزوج أو الزوجة "خالد أبو النجا" شاب ثري أنيق ملتزم وخجول، موهبته في العمل والربح ممتازة، علاقته بزوجته عادية ولكن ينقصها التلقائية والحميمية، "جيهان فاضل" زوجة لا يعرف زوجها عنها أهم أفكارها وأشواقها، تظهر واضحة جدا حين تجلس مع الطبيب النفسي، لدى زوجها روتين هو أشبه بوضع وسادة بين الزوجين في الفراش، روتين يمنع تسرب كامل الحس والشعور والحب بينهما، إن فَتَحت عليه الباب عَرَضا وهو يستحم يصرخ منزعجا كالبنت العذراء،فتعتذر بتوتر ثم تتراجع وتغلق الباب، الغريب أن الطبيب النفسي لم ينصحها بمصارحة زوجها، والغريب أيضا أنه لم يحاول استدعاءه ليخبره مباشرة بما يجب عليه فعله، ظل الطبيب يسمع منها ويتفرج على تطورات إنهيار حُصونها، بينما هي تقترب من الاستسلام للغواية، ولكن كلامها للطبيب عما تخيلته في العلاقة الجسدية، مهم جدا، هي تريدها عشوائية،فيها مسحة من العنف الطبيعي، توحش وغلبة غريزة في كل مكان وعن غير توقع، اختار مؤلف القصة أو مخرجها أن تفلت من الخطيئة في لحظة حاسمة، ولكن من الممكن تخيل سيناريو واقعي وتقع في الخطيئة وتنهار وفي الحالين سوف تعود نادمة لزوجها، ويدور الحوار الذي فيه يعذر كل منهما للآخر.

يقول لها: سامحيني.

فتقول له: "كلنا بنغلط.. كلنا لازم نغفر".

وهذه اللقطة التي أطاردها في أغلب المقالات، الحكمة التي تأتي متأخرة والقبول المستحيل بعد نفور يائس.

* * *

أعرف شخصا كان له تجارب مع بنات الهوى قبل الزواج ثم تزوج، كان يكثر القول بأنه لم يجد متعة سوى قبل الزواج فلما سألته عن السبب،قال: "لأن زوجاتنا محترمات ولا يليق بهن الاستعانة بكلمات وأدوات ووسائل الغانية"، للأسف لم أفلح في إقناعه أن المشكلة تكمن في عدم مصارحة الزوجين لبعضهما، فيجب أن يسأل كل منهما الآخر عما يمتعه ويريحه، أو يجرب كل منهما معا ما يتعرفا به على مفاتيح متعة كل منهما ثم ينسجما.

يذكرني هذا بالشخص الذي فوجئ بجرأة زوجته ليلة الزفاف فطلقها،وهذه ليست نكتة ولكن حادثة متكررة .

أرى أن البنات أكثر استمتاعا وتقمصا للحياة المدرسية والجامعية من الأولاد.

صداقات البنات ونِكاتهن، سلاسل "التحفيل" التي تنطلق تِباعا والضحكات المجلجلة، كلها تنم على أنهن تستمتعن بشدة بالحياة المدرسية والجامعية، تلك الحياة توفر لهن نِطاقا من الحرية غير المتكلّفة، ولا تَحظين بها في الحياة الأسرية والعائلية، ولكن الظاهرة المُثيرة للدهشة عربيا، ما يحدث بعد الزواج.

يتحول التقمص والاندماج كله إلى الحياة الزوجية والأولاد وتتمحور الحياة حول أسرة عائلة الزوج والزوجة، وتبتعد الصداقات القديمة حتى تكاد تتلاشى، تنغمس المرأة في حياة المسؤولية وأعراف وطقوس الزواج، وتدور في ساقية

الزوجة المصرية، ساقية زيارة أم وأخت الزوجة والزوج ومناداة حماتها ب"ماما"، حتى إنَّ الأبناء والبنات حين يتصادف أن يستمعوا إلى حديث يدور في لقاء عابر بين أمهن وصديقة قديمة لا يعرفونها، يندهشون لما يخرج من الأم من نكات وذكريات وروح مرحة وكلمات جريئة فيتساءلون، هل هذه أمنا؟، ما هذه الشقاوة وما هذا الوجه المتوهج والفَرِح؟.

ولو حدث فشل في الزواج، وأرادت المرأة أن تعود لصديقات الطفولة التي تخلت عنهن باختيارها، تجد الأمر شديد الصعوبة، فكيف تصل ما انقطع وهي أرملة أو مطلقة! ونحن نحذر من المطلقات ونفِرّ منهن فرار الشاة من الذئب هذه الظاهرة لا تحدث للرجال، فلا يتسبب الزواج في انقطاع الرجال عن الصداقات القديمة.

أرى أن نشجِّع دفع الأزواج لزوجاتهم أنْ يخرجن من خضم روتين الزواج، وذلك بعقد لقاء شهري أو أسبوعي مع صديقات الأمس والجيران، فترة بدون زوج ولا أولاد ولا أهل الزوج والزوجة، يخرجن من الاندماج في دور الأم والزوجة الحديدي والروتيني، والذي يجعلهن أمهات وزوجات طول الوقت، هذا الاقتراح يُطبَّق في الدول الغربية ويمثل ظاهرة صحية.

المشكلة التي سوف تخرج من أفواه الأزواج هي، حذرهم من انتقال الأسرار الأسرية للخارج، وقيام الزوجات بتبادل الخبرات الحياتية التي قد تؤثر على صندوق الأسرة وخصوصياته، وهذا محتمل! ولكن هذا عَرَض جانبي لا يمكن تفاديه ولكن يُوجَّه ويُرَشَّد، وفي نفس الوقت،أليس اختلاط الرجال مع أصدقائهم يُعرضهم أيضا لنفس المخاوف، وقد تنتقل الأسرار ويتم تبادل الخبرات!

المساواة يا أيها الناس... فكلنا بشر، هذا الموضوع قد يستهين به الكثير،ولكني أؤكد أنه يعالج أمراضا خطيرة في مجتمعنا، أمراضا مكتومة وقابلة للانفجار ولا يُتحدث عنها ولا يلتفت إليها، إلا عند الطبيب أو القاضي أو المأذون، بعد فوات الأوان.

عبد المأمور

في كتاب «مذكرات قليني فهمي باشا» يَروي أنَّه، في عهد الخديوي «إسماعيل» كان يحكم مديرية الجيزة «داود باشا» وكان الهدف الأكبر بالأقاليم تحصيل الأموال الأميرية وسائر الضرائب، وكان له سُمعة وهَيْبة،فأسرع الجميع لدفع الضرائب عدا أحد كبار علماء الأزهر الذي يملك أرضا بتلك المديرية ويسكن الجيزة، وكان متراكما عليه ضرائب كثيرة يرفض دفعها، فأرسل «داود باشا» إليه رسولا يستدعيه فرفض وقال: «لا شغل لي عنده»، ولما رجع الرسول خائبا، أمر «داود» بجلده جلدا مؤلما، ثم قال له:«اذهب وأستحضره حالا بأي كيفية»، فذهب الرسول ومعه كرباج عظيم، ولما رفض العالِم الحضور ضربه بالكرباج فخضع وذهب معه بملابسه الفاخرة، ودخل على «داود»، وهمَّ بالجلوس بجانبه، فصرخ «داود» مستدعيا اثنان من القواصين وقال لهما: «خذا هذا الكلب – مشيرا إلى العالِم – واطرحوه أرضا»، وجلدوه بالكرابيج على أقدامه وهو يصرخ ويستغيث، ولم يتوقف الضرب حتى دفع كل المال المتأخر عليه من الضرائب، وحملوه على الأيدي وأوصلوه لفراشه في بيته.

ذاع الخبر حتى وصل لمسامع علماء الأزهر، وشَكَّلوا منهم وفدا برئاسة «شيخ الجامع الأزهر»، وقصدوا سراي عابدين وقابلوا الخديوي «إسماعيل» وقالوا له: «يا أفندينا في عصرك، عصر النور والعلم، الذي رَفَعْتَ فيه راية العلم وعَظَّمْت قدر القائمين به، ورفعت شأن الأزهر إلى عنان السماء، يَضْربون فيه العلماء بالعدة والكرباج (كسائر الفلاحين)؟».

فطلب الخديوي إحضار «داوود باشا»، فحضر وهو ثابت الجنان ولم يكن عنده أدنى اضطراب بخلاف ما كان يُنتظر وسأله «أفندينا»: «هل أنت ضربت العالم فلان؟، فقال: «نعم»، قال: «وكيف تضرب عالما؟»،فقال: «أفندينا نائب الخليفة في الحكومة المصرية، وأنا نائب الخليفة في مديريتي، وهذا العالِم ثبت لي أنَّه شَتَم النبي، فلم يسعني وانا خليفة الخليفة في مديريتي إلا تأديبه، فأمرت بجلده جلدا عظيما».

فما كان من العلماء إلا أنْ قالوا: «من شتم النبي لا يُكتفى تأديبه بالجلد،بل لا بد من رجمه»، فقال داود باشا: «ولكني جلدته جلدا مؤلما وأظن بعد هذا العذاب الذي ذاقه لا يصح رجمه»، حينئذ قال أفندينا: «مادام ضربه ضربا مبرحا فليكتفي بذلك»، ثم انصرفوا معلنين شكرهم وارتياحهم لما فعله سعادة المدير، وشكروا ولي الأمر لاهتمامه بمطلبهم.

وبعد انصرافهم سأله الخديوي: «ما هي الحقيقة؟»، فقال: «يا أفندينا،هذا الرجل بتوقفه عن دفع مال الحكومة يعطل عليَّ تحصيل أموال المديرية،فبجلده حصلت على جميع المطلوب منه ومن أهالي المديرية،فاستحسن الخديوي فعله وأثنى عليه».

* * *

خرج وفد العلماء ومعهم شيخ الأزهر وتفرقوا دون أن يجرؤ أحد منهم على الكلام، ورجع أحد العلماء إلى بيته وهو واجم ومضطرب الفكر والمزاج، وانفرد في غرفته يكلم نفسه، فما سيدور في نفسه لا يمكن أن يسمعه غيره.. قال:

«يَضربون فيه العلماء بالعدة والكرباج كسائر الفلاحين؟ – أهذه كلمة تصدر منَّا نحن علماء الدين.. وهل ضرب

الفلاحين حلال وضرب العلماء حرام؟.. ألسنا فلاحين أبناء فلاحين!، ها هو الميثاق الغليظ والزواج الحرام بين سلطة الحكم وعلماء الدين يُثمر علقما ومرارة علينا نحن العلماء فرحنا بأنْ عزلنا أنفسنا في طبقة متطفلة على رجال الحكم والمال،ولأنا المنابر صخبا بتوبيخ الفلاحين على عدم إتقان الوضوء أو أداء السنن، وما يستحق التوبيخ سوانا، فما جدوى الموعظة إن لم يكن فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هل سبق أن تجَرأَ عالم أنْ يقول للناس "أن المسلم عزيز ولا يقبل الإهانة سواء بالجلد أو الظلم" للأسف لم تخرج من أفواهنا كلمة الحق، سكتنا على الظلم وشغلنا الناس بصغائر الأمور وأوثقنا إرادتهم بكلمات الطاعة والصبر على الظلم والرضا به،واليوم كان أكبر امتحان لنا، فلم يجرؤ واحد منا على أن يُكَذب «داود»، لأننا نعلم أنهم آلهة بشرية في قلوبنا، فاحتال «داود» علينا بما نحتال به على الناس، وضحك علينا بأدواتنا، لأنه يعلم ضعفنا وحرصنا على الدنيا، وكما يقول المثل: «لقد أذل الحرص أعناق الرجال».

* * *

حين نجح «محمد علي» في التخلص من عمر مكرم ثم المماليك، أصبح الشعب المصري القوة المتبقية التي لا بد أن تمتلئ بالرعب وتُقهر ثم تخضع له، وخاصة أنها كانت حرة وحيَّة في مواجهة الفرنسيين، فجاء دور «محمد الدفتردار»، الذي وردت عنه هذه القصة النادرة في تاريخ الدنيا، في كتاب «جمال بدوي» – «صفحات من تاريخ مصر»

كان «محمد الدفتردار» وحشا كاسرا، يحمل بين جنبيه قلبا صخريا، لا تعرف الرحمة أو الشفقة سبيلا إليه، عاشقا للدماء يطرب لمشهد الرؤوس وهي تطير في الهواء، تزوج

«نـازلي– ابنـة محمـد علـي» واصـبح واحـدا مـن أعضـاء الأسـرة الملكية .

كـان يطـوف علـى بعـض القـرى تقـدم منـه فـلاح بـائس عارضـا شـكواه، فقـال: «لقـد تـأخرت عـن سـداد الضـريبة المسـتحقة علـيّ وقـدرها سـتون قرشـا، ولكـن نـاظر الأرض أبـى إلا الـدفع، فاسـتولى علـى بقرتـي الوحيـدة وأمـر جـزار القريـة بـذبحها ثـم قسـمها سـتين جـزءا وأمـر بتوزيعهـا علـى الفلاحـين بواقـع قـرش واحـد للجـزء، وأعطـى الجـزار رأس البقـرة لقـاء عملـه، وبعـد أن جمـع المبلـغ، مضـى وتركنـي دون أن أتـذوق حتـى ولـو قطعـة واحـدة مـن لحـم البقـرة التـي كنـت أعتمـد عليهـا فـي زراعتي وكانت تساوي ضعف هذا المبلغ الذي جمعه».

مضـى «الـدفتردار» إلـى القريـة وجمـع أهلهـا فـي الجُـرن، والتـف الفلاحـون فـي شـبه حلقـة، ووسـطها النـاظر والجـزار، وأمـر بتكبيـل النـاظر بالحبـال وإلقائـه وسـط الحلقـة، وقـال للجـزار: «كيـف سـمح لـك ضـميرك بـذبح بقـرة هـذا الفـلاح المسـكين وهـي كـل مـا يملـك مـن حطـام الـدنيا؟»، فارتعـد الجزاروقـال: «إنـي يـا مـولاي، عبـد المـأمور، ولـم أفعـل سـوى مـا أمرنـي بـه النـاظر»، فقـال لـه: «لـو أمرتـك بـأن تـذبح النـاظر مثلمـا ذبحـت البقـرة.. هـل تفعـل؟»، فقـال الجـزار: «لقـد قلـت يـا مـولاي إنـي عبـد المـأمور أطيـع الأوامـر التـي تصـدر مـن سـادتي»، فقـال «الـدفتردار»: «إذن فـإني آمـرك أن تـذبح هـذا الوغـد»، وأشـار إلـى النـاظر، فخـف الجـزار مسـرعا وأخـرج السـكين مـن جيبـه وانقـض علـى رقبـة النـاظر، فحزّهـا حتـى فصـل رأسـه عـن جسده،وسـاد الوجـوم أهـل القريـة، وجمـدت الـدماء فـي عـروقهم، وظلـوا واقفـين مـذهولين أمـام هـذا المشـهد الرهيـب، فقـال «الـدفتردار» للجـزار: «والآن آمـرك أن تقطـع جثتـه سـتين إربـا.. مـا عـدا الـرأس».. ومضـى الجـزار بنشـاط فـي تنفيـذ الأمـر، ولمـا فـرغ التفـت «الـدفتردار» نحـو أهـالي القريـة صـارخا: «علـى كـل

منكم أن يشتري قطعة ويدفع قرشين»، وصدع الأهالي بالأمر، أخذ كل منهم قطعة من لحم الناظر، ووضع قرشين فلما تجمع مبلغ مائة وعشرين قرشا، تناولها «الدفترداد» ودفع بها إلى الفلاح المنكوب ليشتري لنفسه بقرة جديدة ثم التفت إلى الجزار وقال: «كما أنك أخذت رأس البقرة جزاء لك على تعبك، خذ بالمثل رأس الناظر جزاء على تعبك» وانطلقت منه ضحكات فظيعة كأنها زلزال، ثم نهض وغادر القرية، ومن خلفه جنوده، بينما أهل القرية ذاهلون من هذا الكابوس.

* * *

حين عرض ناظر العزبة على الأهالي أنْ يشتروا لحم البقرة بثمن بخس،قرش صاغ، لم يُجْبَر أحدٌ على أن يشتري، كان قرار شراء القطعة بإرادة الناس، قرروا المشاركة في ظلم جارهم، وبدلا من أن يرفضوا الشراء أو أنْ يدفعوا لجارهم بقية الثمن الحقيقي لقطعة اللحم، أو يثوروا في وجه الناظر، تسابقوا للشراء ليفوزوا بالتخفيض، وربما هدأ من ضميرهم مبرر أنهم لو رفضوا الشراء فسوف يشتريها غيرهم، ولكن كان العقاب الأكبر في بقية القصة، حين أجبروا على إعادة المشهد بوجهه الحقيقي وكأنه من مشاهد يوم القيامة، لقد اضطروا إلى مشاهدة رجل يَذبح رجلا ويَسلخه ويقطعه ويبيعه ثم يشتروا لحمه بضعف الثمن الأول، وعاد كل واحد إلى بيته بمشهد لن ينساه أبدا، وكما ضحك «داود باشا» على العلماء في القصة الأولى بسبب ضعفهم، ضحك «الدفتردار» على الفلاحين في القصة الثانية لنفس السبب، «الضعف، الحرص، قبول الإهانة، ترك الفرد منهم ليظلم دون أن ينطقوا بكلمة أو يطلقوا صرخة».

* * *

كما قال الإمام «محمد عبده»: «لقد أقام (محمد علي) الدولة وهدم المواطن»

لقد كانت مقاومة المصريين للحملة الفرنسية قوية جدا طوال زمن الاحتلال، وقاد المقاومة علماء الأزهر وطلبة الأزهر ولكن مرت عشرات السنين من حكم الأسرة العلوية وأصبح تحصيل الضرائب بالكرباج، يُجلد الفلاح أمام زوجته وأبناءه وبناته، ويقهر على السخرة التي تأخذهم للشغل كعبيد إلى حيث يقرر الباشا، حتى أن عدد من مات بسبب السخرة في بناء قناة السويس كان رقما ضخما، ولو أضفنا ابتلاء الفقر الشديد في حياة الفلاحين، حيث كانت المعاناة شديدة في شراء ما يسد الجوع ويستر البدن، نفهم كيف غيرت الديكتاتورية طبيعة الشعب وأفسدت تماسكه ونالت من أخلاقه ومروءته.

ويظل يتردد السؤال الذي يتخلل كل مقال يُكتب:

ماذا حدث للمصريين؟

هل هناك أمل في الشفاء من هذا الإرث النكد الذي تشربت به نفوس المصريين خلال عصر أسرة «محمد علي» ومازال فيهم بقية من آثاره التي تمنع التعاون بين المصريين في مقاومة الظلم، حتى أصبحوا دوائر بلا أسنان؟

ألا يهب علماء الاجتماع للحفر في جذور النفس المصرية لمعرفة أصل الداء ووصف الدواء.

لست حرا في هذا العالم

عانت الشعوب عبر التاريخ من تداول سيطرة الإمبراطوريات عليها،تجتاحهم جيوش إمبراطورية، ثم تمر سنوات ضَعْف فتزيحها إمبراطورية أخرى منافِسَة، ومثال ذلك منطقة الشام والعراق التي تداولتها الفرس والروم عدة مرات إلى أن حل مكانهما الإمبراطورية الإسلامية،كانت الإمبراطوريات تتحكم في الشعوب والأفراد من أعلى،وكان للناس قدر من الحرية كبير مقارنة بما لدى شعوب اليوم.

كان الفرد يقدر على الانتقال من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب بين الامبراطوريات دون عائق، ويستطيع الاستقرار والعمل في أي مدينة،قد يبدأ إنسان حياته في الصين ثم يحدث فيها ما يعكرها ويجعلها مستحيلة،فيسهل الرحيل إلى بقية الأرض ليبدأ حياة أخرى مع شخصيات لم تعرفه، يحمل تجربته الأولى على ظهره، ويستعين بها وبدروسها في سلوكياته في الحياة الثانية، يصبح كأنه ولد من جديد بلا ماضي ولا ذنوب، هذا النوع من الحرية سُلب من الجميع، ولا ننتبه له، فبطاقة الهوية والموبايل (الجاسوس) وبقية أوراق الانتماء التي نفتخر بأنها ثمرة التقدم الحضاري، ما هي إلا "كلابشات" تَطْبق حول «أيدينا وأرجلنا ورقابنا وأبصارنا وعقولنا وخيالنا.... بل وأراوحنا» الكلابشات تُعَقِّد وتُقَيّد الحياة، ومفاتيحها ليست بأيدينا بل بأيدي الدول ذات الحدود الصلبة،أصبحت الدول مثل البيوت الزجاجية، لكل بيت مسئول،والمسئول الأكبر يسيطر على كل البيوت في كوكبنا، وتنتهي سلسلة السيطرة إلى الصنم المتأله «ماما أمريكا»، وبهذا يكون

أفدح وأول ما سُلب منا هو حرية التنقل، وحرية الذوبان في الناس.

اليوم أنت تتحرك داخل البيت الزجاجي الشفاف، بلا ستر مرصود بلا حدود، لقد وقعت في الفخ، لهذا فنصيبك من الحرية في تلك الدنيا، أصبح ضئيلا ومشروطا وربما متوقفا على قرار غيرك، فأنت مسجون داخل سلسلة أقفاص معنوية صلبة، ولهذا لا تستحق أن يطلق عليك لقب حر أو شبه حر أو بعض حر.

***

في الماضي كان الإنسان حرا في نفسه، يدرس في الكُتَّاب «يشتغل بالفلاحة، يمتهن حرفة يدوية، يؤجر جهده لآخر مقابل مال»، هذه الحياة تمنحه نعمة الشبع من لبن أمه وحنانها، ومن توجيه المجتمع والأهل، لو قمنا بالمقارنة بين شخصية مَنْ سَلَك سبيل التعليم من «كي جي ون» إلى الجامعة، وبين من خرج مبكرا من الدراسة ليعمل في حقل أو ورشة،لوجدنا الذي خرج من التعليم مبكرا يمتلك قَدْرا كبيرا من النضج والمرونة والخبرة وقوة الشخصية، فالذي خرج ليشتغل "بِلية" في ورشة،قد يكون عانى قهرا وضربا من الأسطى، لكنه تعلم شيئا محددا يستعين به كوسيلة مباشرة للحياة والارتزاق، ونال خبرة بالحياة والناس، أما التلميذ،المطحون بين الكتاب والأستاذ، يتوه بين مواد عشوائية، ويُقهر ويُرَوَّض في كل خطواته التعليمية، يعاني التمييز والتحامل والتكبر وانعدام القدوة، وبمرور الأيام والأعوام يتشوه خلقيا ونفسيا وقيميا.

***

يقول المستشار الدولي في التعليم والمدارس المبدعة «كين روبنسون»: «التعليم الرسمي متأثر بنموذج «الثورة الصناعية» الذي نشأ في القرن الثامن عشر، والذي يتلخص في خطوط الانتاج بالجملة، تدخل الخامات من جهة وتخضع لعمليات متتالية تنتهي بمنتج واحد متطابق، فمصانع السيارات تنتج ملايين السيارات المتطابقة، وكذلك كل المصانع باختلاف منتجها، وهذا بالضبط ما يتم تطبيقه في العملية التعليمية،يدخل الأطفال الماكينة التعليمية بكل مراحلها ووسائلها وأدواتها، يخضعوا لنفس المنهج الدراسي الواحد، ويتخرج منتج واحد بلا اختلاف، يتلقى الجميع نفس المعلومات والأفكار والتجربة والأفعال وردود الأفعال،فالتعليم ينجز مهمة دفن المواهب وقتل الفضول وتبلد العبقرية وتشرب الطاعوية».

يطالب المستشار « كين روبنسون» أن نعود إلى نموذج «الثورة الزراعية»، الذي فيه، لا تطلب كل بذرة إلا تهيئة الجو العام لها، على أن تُترك لقانونها الخاص لتعطي ماهيتها وبصمتها الذاتية، وتتمتع بحظها من شفرة الروح فيها أرواح كثيرة مختلفة، وبهذا نحافظ على العبقريات من الضياع ونُسَرِّع من وتيرة تقدم البشرية وسعادتها.

تؤكد الدراسات أنه بسبب التعليم الحديث وخاصة عند العرب، يتراجع منحنى العبقرية بين الأطفال حتى سن الثانية عشر، وذلك بسبب نمط التعليم الذي يقتل الفضول ويطفئ وهج العبقرية.

يقول «برتراند راسل»: «البشر لا يولدون أغبياء بل جهلاء ثم يصيرون أغبياء». يقصد أنَّ عملية التغبية، يقوم بها التعليم الرسمي للدول. ومعنى ذلك في الآية «وَاللَّهُ

أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»، النحل (78)

يقول «فوكوياما»: «التعليم الرسمي للدول يهدف للسيطرة، فالسيطرة على المتسائلين والفضوليين صعبة جدا، ولكنها سهلة على المُقَولَبِين والنَمَطِيين،وهؤلاء يصنعهم التعليم، فيكفي الاشتغال على واحد لكي يكون نمطيا، لتطبيق نفس الشغل على مليون، ويصبح الكل قطيعا».

ويكفي دليلا على فشل هذا النمط من التعليم الرسمي ما في البشرية من طائفية، ومخاوف حقيقية من التهور بتدمير العالم الذي يمتلك أسلحة هائلة، فخلاصة العصر الحديث «سوبر ذكاء وأدوات وخطط ومكر،ولكن منزوع الحكمة، والذكاء بدون الحكمة يعني فناء.

***

في الماضي وحتى وقت قريب، كان الإنسان حرا في اختيار كيفية إدارة يومه وأفكاره وأشواقه، وحرا في اختيار هواياته،وحرا في التواصل مع الناس بلا قيود. انظر اليوم إلى نمط حياتك، سوف تدرك أنك تعيش داخل البلورة السحرية، تحيا يومك وعمرك كله أمام شاشات، كأنك تجلس بين يدي الحلاق، تعطيه رأسك ليفعل به ما يشاء، تمنح الشاشات حواسك كلها، «السمع والبصر والغريزة والمشاعر والفكر» تقوم البلورة بغسل وشَطف وكَي وتجفيف عقلك ووجدانك وكل ما تحتويه نفسك،أنت واقع تحت احتلال فردي وجماعي لم يحدث في التاريخ من قبل، تظنها جنة الدنيا وهي «الجنة الشريرة»، لست وحدك المحتَل؛ كل نَسْلك سوف يرث هذا الاحتلال، أولادك يولدون من رحم الأم الطبيعي ليسقطوا في رحم الشاشة السحرية،

ألعاب تستغرق ساعات طويلة، تمارس جماعيا، يلعبون مع أسرى مثلهم من كافة بلاد العالم،التواصل الكارثة، فبدلا من أن نتبادل الأفكار والمعلومات والمشاعر والتجارب نتواصل لنلعب، وأكبر خسارة هي التقوقع داخل الشاشة والعزلة الشعورية والفكرية عن الأسرة والجيران والعالم كله.

لا يكفي أن يتخذ رب بيت قرارا بمقاطعة تلك الشاشات أو بترشيدها،الأمر أصبح طوفانا مجتمعيا، ولا يقاوم إلا من المجتمع والحكومات، هذا شغل الأسرة والإعلام وأرباب الفنون والمدرسة،وللأسف كل هذه الأدوات تشتغل لتكريس سيطرة البلورة،وليس لتقليل جاذبيتها وترشيد استخدامها، بحيث نحظى بالفائدة والمعرفة والحكمة ونجعل النصيب من الترفيه معتدلا.

***

مما سبق عرفنا أننا لم نعد أحرارا في الانتقال المكاني ومسارنا التعليمي والوظيفي واستغلال وأوقاتنا، وأجبرنا السير على قضبان حديدية يصعب الخروج عنها، هذه نماذج لثلاثة أنواع من الحريات المسلوبة التي لم تترك للإنسان فرصة الحياة التي تمتع بها آباؤه، وهذه الحريات المسلوبة السبب في أننا سُلبنا أيضا الإحساس بالنعمة والتقدم الأسطوري في جميع المجالات، فلو تخيلنا «هارون الرشيد» في زمانه، لوجدنا أنَّ الفرد اليوم يملك من الوسائل ما يفوق الرشيد كثيرا، فلدينا البلورات السحرية التي تصلنا بالعالم كله في نفس اللحظة، ولدينا الإمكانات العلاجية التي تشفي وتخفف الآلام، وتضع قلبا مكان قلب بل وربما غدا تضع دماغا مكان أخرى.

في عهد الملك هنري الثامن ملك انجلترا، ظل طوال عمره يعاني من صديد في فخذه بسبب جرح، ظل يقاوم تقيحه حتى توفي، وكان من يقترب منه يشتكي من رائحته فالمضادات الحيوية لم تكتشف وقتها.

اليوم زادت الأعمار وتوفرت أسباب ووسائل المتعة بلا حدود وفوق الخيال، ولكن، كيف لا نشعر بهذه النعم ويتمنى معظمنا لو أنه ولد في زمن آخر ومكان آخر، أصبح الأمر أشبه بمن لديه ماكينة معقدة تستطيع إنجاز مهارات بلا عدد ولأنه يعجز عن استعمالها، يحن إلى العودة للأدوات القديمة الساذجة .

كيف يكون شعور من يتحدث مع زوجته عن سلعة ثم يفتح الموبايل ليجد أمامه عشرات الإعلانات عن هذه السلعة! هل يفرح لهذا اليسر؟ أم يفزع من هذا التجسس؟

هذا المثال من أمثلة كثيرة، يوضح سبب اختلاط مشاعرنا وحيرتنا، فنحن نعجز عن معرفة مشاعرنا الصحيحة أمام هذه الوسائل، وربما يزيد من تضاعف هذا الاضطراب عندنا نحن العرب أننا مستهلكون لهذه الأدوات ولسنا منتجون وهنا يكمن سر مشاعرنا التائهة.

المحبس الأم

عندما تنفجر ماسورة ضخمة بالمدينة فيتدفق الماء ويغمر الشوارع، ما الحل؟، بمرور الساعات سوف تُغرِق المياه شوارع المدينة وأبنيتها، لو أنشغل المئات في تصريف المياه وتجفيف الشوارع لكان جهدا هائلا بلا نهاية ولا نتيجة ولكن لو أسرع فرد واحد إلى «المحبس الأم» وأغلقه لتوقف تدفق المياه من المصدر ولأصبح لعملية التجفيف جَدوى.

في هذا المثال وقع حادث تسبب في خسارة وارتباك للجميع، وربما يتطور إلى مخاطر كبيرة، وبسبب شخص واحد لديه معلومة صحيحة، وهي أهمية ومكان «المحبس الأم»، استخدم المعلومة في السيطرة على الحادث وأتاح للجميع البدء في معالجة آثاره.

***

عندما ينشب حريق في مبنى يسارع الجيران بإبلاغ المطافئ، وتصل العربات ويتوقع الناس أن يبدأوا فورا في تصويب أدوات الإطفاء إلى الحريق مباشرة، ولكنهم يبدأوا بالسؤال عن مصادر الغاز والكهرباء، ثم يغلقوها بأي وسيلة، وبعدها تبدأ عملية الإطفاء.

ولو سارعوا بالإطفاء قبل إغلاق مصادر الغاز والكهرباء لتضخم الحريق ولتفاقمت أضراره ولتضاعفت الخسائر وربما الضحايا.

لأوروبا تاريخ دموي فريد وليس له مثيل، فالتسامح يعتبروه عار وضعف،وهذه هي عقيدتهم العنيدة، فأوروبا

الكاثوليكية رفضت أنْ يسكنها دين مختلف، وحين يحدث تمرد أو ثورة يقوم الملك باجتياح البلد وقتل الجميع دون تمييز، وتنتشر في الكتب الوثائقية صورهم التي يتدلى فيها الرجال والنساء والأطفال والشيوخ من رقابهم على جذوع الشجر،فالتمرد ليس له جزاء إلا قتل المتمرد وأهله جميعا، وتسببت هذه القسوة في موجات من الحروب أفنت ثلثي شعوب أوربا، وخاصة الحروب التي اندلعت بين الكاثوليك والبروتستانت، ولقد طالت هذه القسوة الأوربية شعوب أسيا وإفريقيا وقتل الاستعمار الأوربي ملايين البشر.

عقب الحرب العالمية الثانية أدرك الساسة الأوربيون أنَّ التنازع على الأرض والطائفية، هما سبب مئات الملايين من القتلى في الحروب التي حدثت بينهم، فكان القرار السياسي بأن يتم تكثيف كل أدوات «التعليم والثقافة والفنون والآدب والفكر والإعلام ..إلخ» في نشر قيم المساواة والتسامح الديني والمواطنة، وفي سنوات قليلة أصبحت تلك القيم شعبية في كل أوروبا وأمريكا، وتواجد الألماني والفرنسي معا دون مشاعر سيئة،ومنذ ذلك الوقت اختفت الحروب والصراعات بينهم وتكوَّن الاتحاد الأوربي وبقية المؤسسات التي تجمعهم، حتى أنك تدهش حين تجد قيم أوربية مشتركة يعتنقها أغلب الأوربيين، وأصبحت من البديهيات.

في هذا المثال تم غلق «المحبس الأم» لفكرة شريرة، وفي نفس الوقت تم فتح «المحبس الأم» لفكرة صالحة، وأصبحت تسري في وعي «ولا وعي» كل أوروبي، ثم قاموا بتصدير نفايتهم من «قيم الطائفية والتعصب والسلطوية» إلى

العـــرب الـــذين اكتـــووا بنيرانهـــا منـــذ تلـــك اللحظـــة وحتـــى اليوم.

***

هل نستطيع أن نتخيل وجود "المحبس الأم" للأفكار؟

هل نستطيع أن نتخيل وجود "المحبس الأم" للعواطف؟

هل نستطيع أن نتخيل وجود "المحبس الأم" للنفسيات؟

هل نستطيع أن نتخيل وجود "المحبس الأم" للعلاقات؟

أفكـــار شـــعبية تتبـــدل وعواطـــف شـــعبية تتحـــول، ونفســـيات شعبية تُسالم،وعلاقات شعبية بلا أشواك؟

يُســاق النــاس فــي الحيــاة بقــوة وبوصــلة أفكــارهم وعــواطفهم ونفوســـهم، لمـــاذا لا نشـــتغل علـــى المحـــبس الأم لهـــؤلاء فيتغير المزاج والفعل والمناخ الشعبي بالجملة.

***

خـلال الحـرب العالميـة الثانيـة دخـل ضـابط ذو رتبـة عاليـة علـى الـزعيم الســوفياتي ســتالين وأخبــره أن هنــاك عرافــا متمكنــا يريـــد مقابلتـــه ، وأن عنـــده مـــن التنبـــؤات والمعرفـــة المستقبلية ما يفيد القائد في حربه ... صرخ ستالين في الضـابط قـائلا : اخـرج واقتلـه علـى الفـور ! فمـا كـان مـن الضـابط إلا أن خـرج ونفـذ الأمـر وقتـل العـراف ثـم عـاد الضـابط وسـأل رئيســـه مســـتغرباً : لمـــاذا أمـــرت بقتلـــه وكـــان يمكـــن أن ينفعنـــا؟ فقـــال ســـتالين : لـــو كـــان يعلـــم الغيـــب لعلـــم أنَـــه بمجيئه سوف يموت.

ممـــا ينســـب إلـــى جعفـــر البرمكـــي مـــن الفطنـــة أنـــه بلغـــه أنَّ هـــارون الرشـــيد مغمـــوم مـــن أجـــل أنَّ يهوديـــا زعـــم أنَّ الرشـــيد

يموت تلك السنة، فركب جعفر إلى الرشيد فرآه شديد الغم، فقال لليهودي: «أنت تزعم أنَّ أمير المؤمنين يموت إلى كذا أو كذا يوما؟» قال: نعم. قال: وانت كم عمرك؟ قال كذا وكذا. وذكر مدى طويلا. فقال للرشيد اقتله حتى تعلم أنه كذب في أمدك كما كذب في أمده، فقتله فذهب ما كان بالرشيد من الغم،وشكره على ذلك وأمر بصلب اليهودي.

في الروايتين تم حسم فكرة التنبؤ بالغيب بذكاء، ومثل تلك القصص تساعد على تغيير أفكار ملايين السذج الذين يستنزفون طاقتهم وحياتهم على أبواب الدجالين والمشعوذين، فنغلق المحبس الأم لهذه الدوامة الخبيثة.

* * *

المجتمع المصري "وربما العربي" اليوم يشبه هذه اللوحة؛ «في كل مكان نشاهد المواسير المكسورة، الأسلاك الكهربائية العارية، أشياء انخلعت من مكانها وأصبحت عُرضة للسقوط في أي وقت على رؤوس المارة،فتحات صرف صحي دون غطاء موزعة هنا وهناك، مركبات كثيرة تسير بسرعة عالية دون التزام بإشارات مرور، أشرار يحملون في طيات ثيابهم أسلحة خطرة... إلخ».

الأخطار في كل وقت وكل مكان، والخسائر لا تتوقف، والكدر وتعكر المزاج هو الأصل»، ولكن، فوق ذلك؛ النفوس ثقيلة بمشاعر سيئة نتيجة نشوء انشقاق طبقي متسارع بين الناس، أصبحت كل طبقة وظيفية أو مالية أو دينية في خندقها، وكل ما تتمناه أن تكون الخسائر في الطبقات الأخرى التي تعتبرها طفيلية وضارة، وبهذا فالتعاون باطل بين الجميع ولا أمل فيه حتى الآن، طالما ظل الناس بنفس الأفكار والنفسيات والجهالات».

هل يمكن مع هذه الفوضى المركبة أن نعرف المحابس الأم نسرع إليها فننزع فتيلها أو نغلقها!، لا شك أن بذل الجهد في معالجة كل مرض أو حدث فردي حماقة، الحل في المحابس الأم لكل الأخطار المنفلتة،وأغلب الحلول في جوهرها فكرية ولهذا وجب الدراسة والتأمل.

***

فكرة "المحبس الأم" للأفكار والعادات والسلوكيات صحيحة ولكن ليست كافية، قد تكون الفكرة صالحة لو كان الحُكم وحده للمنطق، ولكن هناك عوامل أخرى أقوى سلطة من المنطق وتقاوم بقوة وعناد، وأقواهما عاملان:

الأول: «التوهم برباط بين تلك الفكرة والدين، فالاقتراب من الفكرة يكون مقدمة للنيل من أصل الدين».

الثاني: الخوف من كلام الناس وإنكار المجتمع، وهذا هو الصنم الأكبر لكل الناس وخاصة العرب.

هذه بعض أمثلة «الأفكار الأم» التي تنكد على المصريين وتفرمل قاطرة التحديث والتطور؟

الإيمان المتضخم بالحسد والسحر والأعمال السفلية والتلبس بالجن «يؤدي إلى تباعد الناس والنفور في العلاقات والعيش في دائرة مفردة ومغلقة، فتحيا الأسر وكأنها في مدار خاص بها منعزل ويحيا الناس في شقاق وسوء ظن بينهم».

الإيمان المبالغ فيه بالأعمال التي تكفر الذنوب بوسائل مادية والتي أشبه بصكوك الغفران. «من المعروف أن من سرق عليه أن يتوب بالكف عن السرقة ورد السرقات، وليس أن يؤدي مشاعر الحج فيتطهر، أو الصلاة في المسجد النبوي حيث الأجر مضاعف، أو يختم القرآن عدة مرات فينال

حسنات كثيرة تُزاحم السيئات، أو ينفق من المال ليكفر عن ذنوبه».

لا ننكر ثواب هذه العبادات ولكن ليست هذه أداة تصحيح الذنب،لأن بهذا المنطق أصبحت هناك قناعة أنَّ الجريمة لا تكفر بجنسها، ولكن بأنشطة أخرى سهلة ولكن لا تصحح الخطأ الأول، فحدثت السيولة التي لا نستطيع بها أن نفرق بين الإنسان الصالح والطالح.

مفهوم الأقلية والأكثرية داخل الحدود المغلقة. «منذ تكونت الدول القومية الحديثة ووضعت الحدود وجوازات المرور، أصبح الناس داخل الدولة سواء، وأصبح الكل يشمله صفة المواطن، ولا بد أن تشعر الطوائف بالأمان وعدم التهديد، ولهذا يجب أن يختفي مفهوم الأكثرية والأقلية لأنه يهين الناس ويشعل فتيل الأحقاد ويوقف عجلة النمو والسلام بين الشعوب».

التفريق في النظر بين البكر والثيب. «من أقوى المعتقدات التي نكدت على المرأة، التصنيف القبلي الذي يفضل البكر على الثيب، ويفرق بينهما في المكانة، بينما لا ينسحب هذا التفريق إلى الرجل الذي سبق له الزواج،فلا يلام ولا تنقص درجته، وهذا الظلم غير منطقي، ويتسبب في مآسي للمرأة والمجتمع».

ربط المؤهل الجامعي بالمكانة، وجعله مؤهل للزواج سواء للرجل أو المرأة «المؤهل الجامعي أصبح مؤهل شعبي في بلادنا، وهذا وضع غير طبيعي،الكل يتسابق إليه، وفي نفس الوقت ينظر إليه كشرط للزواج على الرغم من أن وسائل التواصل الحديثة نشرت الوعي الضروري الذي يردم المسافة الثقافية بين المراحل التعليمية».

ربط الشرف بالمرأة. «وتسبب قَصر الشرف في المرأة، أن ضعف مفهوم الشرف حين تنتهك النزاهة والكرم والعدل وقول الحق والعفاف وبقية الفضائل، فأصبح الفاسد يمشي بين الناس مكرما ومهابا، وارتبك ميزان القيم».

تبرير الجبن وخاصة الجماعي. «حديث (أيكون المؤمن جبانا!)، شاع في الناس، وفهم كثيرون أنه شعور طبيعي للإنسان، فتمدد الجبن حتى أصبح الفساد والقهر والظلم يرتع بيننا ولا نستجيب»

***

هذه بعض المحابس الأم والتي تحتاج تفصيل طويل ودراسة بحيث نعمل على نزع جذورها من فكرنا ونفسيتنا وهذه رحلة طويلة ولكن لا بد من الشروع فيها، وسوف يكون هذا المقال مقدمة للفكرة التي سنبسطها في فصول تالية.

القرآن الكريم .. والقراءة

فكرة أنَّ معجزة ودليل الوحي الإلهي وختام النبوة «كلمات»، يُتحدى بها الناس إلى يوم القيامة، أن يأتوا بمثل الكتاب أو سورة منه، والحسم بأنهم لن يقدروا، هذه فكرة مدهشة، فكرة علوية ومستحيل أن تمر بخاطر بشر،فسقف خيال البشر لا يمكن أن يتجاوز تصور المعجزة التي تخرق النواميس ويراها الناس ويندهشوا، ويظلوا شهداء على حدوثها.

من أقوى الأدلة عندي على استحالة أن يكون القرآن بشريا،طريقة نزوله على الرسول، فلو نزل مرة واحدة في كتاب، لكان هناك سهولة في البحث والتفتيش في كل ما فيه، فربما تم تأليفه من أشخاص متميزي العلم،عقدوا اجتماعات سرية عبر سنين، ثم صاغوا هذا القرآن، وعندما انتهوا من مراجعته وتنقيحه والاطمئنان لما فيه، أظهره الرسول ﷺ للناس، مدَّعيا أنه وحي السماء، وفي تلك الحالة سوف يكون يسيرا على العرب تحديه ونقده.

لكن لا خلاف على أنَّ هذا القرآن نزل على مدار ثلاثة وعشرين عاما متفاعلا مع الناس، فغالب القرآن ردودا على أسئلة أو تصحيحا لمفاهيم،ونشاط متواصل لاستجابة السماء للإنسان عبر الرسول الكريم.

قام القرآن بعملية تكوين الجيل الأول الذي سوف يحمل شعلة الإسلام،ولم تسجل سيرة شخصية على وجه الأرض بالتفصيل، مثل سيرة الرسول ﷺ، وفي القرآن الكريم والسيرة النبوية مناخ عام واضح، بأن النبي كان وحده

القائد في رحلة النبوة، لا توجد شخصية مساعدة أو مشاركة في القرارات، الوحي يأمر الرسول الذي يبلغ أصحابه.

ونخلص من تلك الفكرة أنَّ «القرآن نزل على مراحل، وكان النبي هو القائد الأوحد في تلك السيرة»

والسؤال الذي يفرض نفسه :

«هل يستطيع أي قائد قافلة مجتمعية أن يكتب ويؤلف وهو يقود سنوات طويلة، دون أن يظهر في كتابته أخطاء فادحة وثغرات واسعة وتناقضات صارخة، فيتيسر نقد وكشف صلاح أو فساد انتاجه في زمن يسير».

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» (النساء – 82)

«مع العلم أن هذا التحدي القرآني مازال مُشهرا في وجه أي مُشَكِّك إلى اليوم، وحتى تقوم الساعة»

***

نشأ النبي ﷺ في مكة، ومكة هي أقرب للقرية في طبيعتها، وطبيعة القرى السكون التام، أي حادث تلوكه كل الألسنة في البيوت، ولا تنشط مكة إلا في موسم الحج،وهي أشهر معدودة في العام، والنشاط الرئيسي هو رحلة الشتاء والصيف للتجارة، تُغادر القافلة ثم تبقى مكة معظم العام في سكونها ، وهذا السكون يجعل النبي ﷺ معروف السيرة كاملة لكل أهل مكة، ولو صدر عنه في تاريخه أي فعل يكذب ما أشتهر به من الصدق والأمانة، لما منعت مكة نفسها من معايرته به كي تُنكر عليه النبوة.

في سيرته نجد ملحظا مدهشا، لم يبرز النبي قبل البعثة في أي من المجالات التي تجذب طموح الشباب وتُظهر

مواهبهم «المصارعة،الفروسية،الشعر...الخ»، حتى أنه لم يصدر منه أي نشاط فيه تمرد أو إنكار للحياة الدينية والفكرية في مكة، كانت حياته مثل الناس،ولكنه لم يسجد لصنم، وكان يشتهر فقط بالصدق والأمانة، وهما من مؤهلات النبوة التي ستأتي بعد ذلك.

أربعون عاما وهو بشخصية وادعة تحيا منسجمة في الناس؛ ثم تنقلب تلك الشخصية تماما، يدّعي النبوة ويدعو للتوحيد، ثم يتحول لشخصية متعددة المواهب لدرجة أسطورية، يكاد كل فعل وقول منه يصبح مثاليا ونموذجا للناس«السياسة،الحكمة،الحلم،الحرب،القيادة،الدعوة، الخطابة،الحسم،البلاغة، الرحمة...الخ» ويتلو قرآنا ينزل على مراحل حسب الحوادث، وينسبه لرب العالمين. بل ويتحمل في سبيل هذه المهمة كل أصناف الإيذاء،فالمرحلة المكية شديدة على النبي ﷺ وعلى القِلة المسلمة المستجيبة للإسلام، والصبر ثلاثة عشر عاما أمام مكة كلها، دلالة على إيمانه الراسخ بدعوته.

وفي مكة البلد الصغيرة، لو كان يأتيه من يدعمه بأي وسيلة من خارج البلدة، لعلم الناس ولتحدثوا عنه.

والخلاصة «أن النبوة كانت طفرة حادة في شخصية وحياة النبي، والجهاد في سبيل الدعوة ثلاث وعشرون عاما بثبات لا يصدر من مدّع، ولا تفسير له إلا الوحي.

ذكر العالم المغربي «أبو زيد المقرئ الإدريسي» هذه الفكرة المدهشة:

سؤال: ما العنوان الذي يختصر السيرة النبوية ويعبر عنها وتكون أغلب أحداثها مَصبوغة به؟

الجـواب: الصـراع بـين قـريش والإسـلام حتـى فـتح مكـة «بعـد تسعة عشر عاما من البعثة»

سـؤال: منـذ عـام 1948 وحتـى اليـوم.. هـل خلـت نشـرة إخباريـة من ذكر إسرائيل؟

الجـواب: لا.. وهـذه اسـتجابة بشـرية طبيعيـة ... فالصـراع الـذي يوضـع فـي المقدمـة يتبعـه ذكـر مسـتمر لأطـراف الصـراع وحوادثه وكل ما يتعلق به.

سؤال: كم ورد إسم (قريش) في القرآن الكريم؟

الجـواب: قـريش التـي تفرغـت بأقصـى جهـدها لإستئصـال الإسـلام عبـر تـاريخ الرسـالة، ورد ذكرهـا فـي القـرآن الكـريم مـرة واحـدة فـي سـورة قصـيرة جدا،سـورة لـم تـذم أو تُكَفِّـر أو تـوبخ قـريش، ولكـن تـذكرهم بنعمـة اللّه علـيهم، وعنـدما دخلـت قـريش فـي الإسـلام لـم تجـد فـي القـرآن آيـات تتلـى تنـال منها،فهـل مـن الطبيعـي بشـريا هـذا الانضـباط؟ هـل يملـك بشـر أن يظـل فـي صـراع التهديـد بالإبـادة، ولـيس فقـط يمسـك لسـانه عـن ذكـر العـدو الأكبـر والوحيـد بسـوء، بـل يـذكره مـرة واحدة في معرض تذكير بالنعمة.

***

هـل انتبـه أحـد إلـى أن كتابنـا أسـمه القـرآن؟، اسـم مشـتق مـن القـراءة، وفيـه معنـى مباشـر بأنـه يُقـرأ، «أقـرأ» أول أمـر مـن اللّه حـين نـزل القـرآن، هـل يُعقـل أن يُـأمر بقـراءة كتـاب بتحريـك اللسان دون وعي بما يقرأ؟

لننظـر إلـى التيـار الـذي هبـت منـه الريـاح الإحيائيـة الدينيـة هذا القرن، ماذا أنتج كتدين في جانب التعامل مع القرآن؟

جعل همَّ الناس منصبا في وسيلة وحيدة يقوم بها الجميع.

•أن يحفظ الناس القرآن الكريم.

•أن يحرص الناس على قراءة القرآن يوميا بقدر متزايد لا يقل عن جزء وكلما زاد كان أفضل.

وفي رمضان يكون المشهد الشائع، قوم جالسون في المسجد يرتفع منهم أصوات قراءة القرآن التي يتلوها كل منهم منفردا.

تسابق على «كَمْ حَصَّلَ من ختمات للقرآن في رمضان أو في أي شهر»،ثم ينتشر بين الناس أن قراءة القرآن يُتعبد بها سواء بفهم أو بدون فهم، فيختار أغلب الناس عبادة قراءة القرآن التي تجمع الحسنات بعدد الأحرف، وهكذا كل عبادة جوهرية تتحول لتصب في عادات ظاهرية حركية، بدلا من أن تصب في القلب والعقل والوجدان.

إنَّ تدبر القرآن يتعمق بالقراءة وبالمعارف كلها، فالفيلسوف الذي يقرأ القرآن يتأثر وينفعل ويؤمن بقدر عمق معارفه ومهارته الفلسفية، وهكذا الحال مع «عالِم النفس والإجتماع والفيزياء وبقية المجالات العلمية»،وهؤلاء هم العلماء.

فالقراءة هي الفريضة الغائبة وهي التي تصب في فهم القرآن وتزيد الإيمان ، لم يطلق اللّه تعالى اسم «القرآن» دون قصد، القرآن يُقرأ ويُتدبر ويُنصت له ويُستمع له.

«وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (الأعراف – 204) والرحمة تكون فهما وهداية ورشدا وحكمة.

***

من اللفتات المدهشة التي تشرح صدري، تلك الآية؛ «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» نزلت على الرسول في حجة الوداع وهي الحجة الوحيدة والأخيرة له، وللرد على من يفترى بأنّ الإسلام من عند بشر، منطقيا أنّ الذي يفتري دينا يندمج في هذا العمل باستمرار، ويصعب عليه امتلاك الوعي الذي يجعله يفكر في مستقبل الدين من بعده، ينجرف في الأحداث ثم يموت فجأة كما يموت الناس، يترك فراغ وثغرات ونقص لم يكتمل، ولكن يصل الإتقان إلى أن تنزل في حجة الوداع وقبل وفاته بأشهر هذه الآية، ثم يمرض الرسول ﷺ سريعا ويغادر الدنيا!

هذا بالنسبة لي ختام حكيم ومقصود ومتقن. يصدر عن الوعي الأكبر. إنه الوحي.

خطأ في تجميع الهيكل العظمي

لم يكن العقاد يؤلف العبقريات بالطريقة التقليدية، كان يقرأ تاريخ الشخصية كاملا، ثم يتأمل بحثا عن مفتاح الشخصية، مثل مفتاح الفندق الذي يفتح كل الأبواب، وهذا المفتاح جوهر الشخصية وروحها، فلا تفعل أو تتكلم أو تنحاز أو تخاصم إلا بِنَفَسٍ من هذا الجوهر أو الروح.

وهناك من يعتقد أنه أمسك بمفتاح أو جوهر الإسلام،ويحاول فتح كل الأبواب ومعالجة كل القضايا به، فلو كان المفتاح الخاطئ فسوف يتسبب في نكد حياة الإنسان،ولو كان المفتاح الصحيح يكون الدين يسرا للناس وينالوا بركاته وثمراته.

* * *

العالم الهندي الشهير «وحيد الدين خان»، صاحب الكتاب الشهير «الإسلام يتحدى»، له كتاب آخر أقل شهرة، بعنوان «خطأ في التفسير السياسي للدين»، كتبه نتيجة لحوار جرى بينه وبين «أبي الأعلى المودودي» رئيس الجماعة الإسلامية بباكستان، في الكتاب يقوم بنقد نظرة «المودودي وسيد قطب» للدين، يقول:

«الدين يتكون من أجزاء، هذه الأجزاء قام بتبليغها الأنبياء ورعاها الصحابة حتى وصلت إلينا، ولم تكن وظيفة الأنبياء توضيح حكمة أو فلسفة «الصلاة أو الحج أو الشورى.. إلخ»،فمهمة الأنبياء البلاغ وليس شرح الفلسفة التي وراء الوحي. "فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ" (الشورى – 48)

أما مهمة البحث في الحكمة والفلسفة والهدفية لأجزاء الدين، ومحاولة بحث ناظم العِقد الذي يجمع «يَنْظِم» الجواهر معا، تُركت لمن يأتي عبر الأجيال إلى يوم القيامة.

* * *

ولكل جزء من الدين حكمة أو فلسفة، وللدين ككل حكمة وفلسفة عليا، اذا بحثنا عن فلسفة الدين كله فنحن نبحث عن جوهره، ونبحث عن حاجة الانسان له، وبناء على هذا،يرى أنّ «المودودي وسيد قطب»،بحثا عن حكمة وكتالوج وعنوان وناظم الإسلام، الذي يجمع أجزاءه فوجداه في كلمة «النظام».

مثل نظام الدولة، بمعنى استسلام الناس أمام قوة جبارة قاهرة يذعنون لها، وهي «اللّه» وشريعته التي ستطبقها الدولة على المؤمنين، استسلام للّه يشبه استسلام الناس للحكومة القاهرة، وبهذا مرَّت كل الأفكار عن الإسلام في قناة تكوين دولة إسلامية ولها سلطة، وبدأت رحلة الإسلام السياسي، وحدث التشويه والفهم الخطأ، فكان إصرار «المودودي» على انفصال باكستان عن الهند، كخطوة لتحقيق هذه الدولة المسلمة، ثم انفصال بنجلادش الدامي عن باكستان وفشل كلاهما نتيجة خضوعهما لديكتاتوريات وليس دولة اسلامية نبيلة ، وندم «المودودي» في حياته وعانى من تجربته المؤلمة مع «محمد علي جناح» مؤسس باكستان، بسبب الخطأ في التصور والفلسفة، فما هو التصور الصحيح للإسلام في رأي «وحيد الدين خان»؟

يمكن شرح فكرة «وحيد الدين خان» بهذا المثال:

في المعمل وقف كل طالب أمام منضدة تحتوي على مجموعة عظام لمخلوق مجهول، على كل طالب تركيب

العظام المتناثرة لهذا الهيكل العظمي،يفتش في العظام، ويتخيل الشكل النهائي، ثم يبدأ التركيب،أغلب الأشكال التي قام الطلاب بتركيبها مشوهة، والسبب خطأ الخيال،فالعظام مختلفة الحجم والتركيب والطول، ويصعب وضعها في غير موضعها،الطلاب الذين نجحوا في معرفة الشكل الحقيقي هم الذين ظهر هيكلهم متناسقا،وطبيعي أن من تصور الهيكل سلحفاة أو زرافة أو فهد أو غوريلا، يفشل حين يكون أمام عظام إنسان.

أدى تصور «المودودي» الإسلام «نظام»، إلى وضع قواعد وأدوات تتناسق وتُحكم بكلمة نظام وسلطة وشريعة،فهرع كل الشباب لتبني حلم «الدولة والقوة وصرامة التشريع والتعالي القيمي والسعي لضم الكل في دولة» فكان الحصاد، التيه الدامي والصدام في أغلب بلاد الإسلام.

وهنا قدَّم "وحيد الدين خان" تصوره عن عنوان وراية الإسلام، اعتمادا على فكرة أنَّ الإسلام دين الفطرة.

ذكر«وحيد الدين خان»أنَّ الحركات الإسلامية جاءت كرد فعل لسقوط«الخلافة الإسلامية»، والأولى أن تنشأ كرد فعل لسقوط «الحضارة الإسلامية» المبكر ولهذا غلب الطابع السياسي على الطابع الفكري، وكان لا بد من دراسة أسباب سقوط «الحضارة لا الخلافة».

ولهذا نتعثر حتى اليوم وراء شعار «الإسلام دين ودولة»،وكان الأولى أن ندرك أن فلسفة الإسلام هي، ايجاد ربط علاقة «الخوف والمحبة والولاية والتوكل والصلاح والسلام.. الخ»، بمظهر العبادة، وأن غاية الإسلام أن يتغلب فكريا على غيره من الأفكار، يتغلب فكريا لا سياسيا ولا قتاليا، وأن يسعى لإقامة «امبراطورية الفكرة» وليس «امبراطورية الحكم».

سلطة استدعاء النموذج التاريخي لها تأثير كبير على شعوبنا الإسلامية،النماذج كثيرة وتطبيقاتها أيضا كثيرة،وذاقت الشعوب المسلمة ويلاتها إلى اليوم.

سافرت جمعية «علماء الهند» إلى بريطانيا ليتحدثوا مع الساسة، حاولوا إقناعهم بالضغط على «أتاتورك» لكي لا يلغي الخلافة العثمانية، وفشلت المحاولة، وفعلها أتاتورك،وكانت صدمة لهم، فتفاوضت إنجلترا الشريرة معهم لإنشاء كيان مسلم ينفصل عن الهند، فهي لا تريد أن ترحل عن الهند تاركة قارة تمتلك مواهب الإمبراطورية،وأغرتهم بأن تكون باكستان هي النواة الجديدة للخلافة التي زالت، فيحققون أحلامهم بالمدينة الفاضلة التي تقتدي بالمدينة المنورة، وبهذا أصبح النموذج التاريخي المختار هو «المدينة المنورة»، وانقسم أعضاء جمعية علماء الهند لفريقين يستندون لنفس النموذج التاريخي:

– فريق يضم «أبي الحسن الندوي ووحيد الدين خان» وغيرهم ممن وجّهت لهم سهام التخوين، لأنّهم عارضوا الانفصال بحجة؛ أنّ وثيقة المدينة التي عقدها النبيﷺ،ضمت كل المسلمين واليهود والنصارى والمشركين وغيرهم، ولهذا يجب أن نجعل «الهند» هي المدينة، ويحيا الكل معا بالعمل على المشتركات.

– وفريق يضم "أبو الأعلى المودودي" وشخصيات أخرى متحمسة،بمنطق فكرة المدينة المنورة، ولكن يعتبرون «الهند» كأنها «مكة»، بينما «باكستان» هي المدينة التي نهاجر إليها، كما هاجر الرسول ﷺ وأصحابه،ونظرا لأن الفرقة الأولى عقلانية وفكرية، والفرقة الثانية عاطفية واحتجاجية،انتصرت الفرقة الثانية شَعبيا، وانتصر «المودودي» ومن تبعه من التيارات الإسلامية وخاصة

العربية، وتاه الشباب المتدين الذي دفعه هذا التيار وراء حلم نموذج الدولة والخلافة والسلطة.

* * *

أما عن رفيقه «أبو الحسن الندوي»، صاحب كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، الذي اشتهر في العالم الإسلامي بحكمته واعتداله، وصاحب المبادرة بدعوات الحذر من منعطفات خطيرة في مسار الأمة الإسلامية، كتب كتاب مشابه لكتاب «وحيد الدين خان»، بعنوان «التفسير السياسي للإسلام»، كتبه أيضا ردا على «المودودي» وكانت دعوته غناء خارج السرب، ونادى بعدم الانفصال وقال: «إن الانفصال يُضعف المسلمين ولا يقويهم»، وصفها بإنها مؤامرة إنجليزية، ولن يدع الاستعمار تلك البلد المنفصلة بأغلبيتها المسلمة تنعم بالسلام أو التقدم.

وعندما ظهرت في العالم الإسلامي تيارات دينية بتفسيرات عنيفة تعزل المسلمين عن العالم، قال معلقا على كتابات أبي الأعلى المودودي وسيد قطب:«إنهم يغيرون كيمياء الإسلام، وسوف نجني نتيجة لهذه الكتابات إسلاما له كيمياء مختلفة عن الإسلام الذي نعرفه ووصل إلينا من منابعه الأصيلة، ولن نستطيع فيما بعد التعرف على الإسلام الأصلي».

لم ينصت له أحد، بل؛ واتهم في نيته وفهمه، لكن التاريخ أثبت أنه كان على صواب وحكيما وصاحب رؤية وفهم عميق، وتغيرت كيمياء الإسلام وحدث الهرج الذي نحن فيه منذ ثمانين عاما.

* * *

منذ سنوات طلبت الحكومة البرازيلية من الأديان والطوائف المختلفة فيها أن يعرضوا ورقة تشرح دينهم أو طائفتهم

وسوف يقدموها في منهج مدرسي ليتعرف الطلبة على اختلافات العالم الفكرية والدينية، ويتعلموا قبول الآخر،وقدمت الهندوسية والبوذية والكونفوشيوس وبقية الطوائف ورقتهم، ولكن كانت ورقة المسلمين شديدة الصعوبة، فعن أي إسلام سيكتبون؟، السنة أم الشيعة أم التيارات السياسية أو السلفية أو الصوفية.. إلخ، فلكل منهم فهم مختلف، مثل اختلاف تصور الهيكل العظمي،وكان هذا الاختلاف والارتباك يمثل مظهرا غير حضاريا أمام البرازيليين.

***

الاختلاف في الهيكل العظمي أشبه بطالب في امتحان، قرأ مسألة رياضية، وكانت تتحدث عن دائرة، ولكنه تسرع وتوهمها مربع، ورغم إخلاصه واجتهاده إلا أنه فشل في حل المسألة، لأنه طبق قوانين المربع على دائرة، وهذه هي أكثر أخطاء المسلمين، الاختلاف في الأسماء والمسميات.

***

قال أحد المفكرين الحكماء: الصحوة الإسلامية والأيدولوجيات الإسلامية الحديثة، كانت مثل عربة لم تستعمل منذ زمن، ثم ظن صاحب العربة أنهم يكفيهم أن يملأوا خزَّان العربة بالوقود ويديروا المفتاح ثم ينطلقوا،فانطلقت العربة دون مراجعة وصيانة، فكانت المشاق والأعطال والحوادث الكثيرة، ولو قاموا في البداية بمراجعة أجزاء العربة والتأكد من أن كل جزء مكانه وبلا أعطال ثم انطلقوا، لكانت الرحلة ناجحة ومثمرة، ولكن هكذا حال من يستعجل الحركة قبل الفكرة.

المراجعات والمباحثات المشتركة بين المفكرين والعلماء هي أول الضروريات قبل الانطلاق وتطبيق النظريات على

الناس، ولكن ثبت عبر كل مراحل التاريخ، أن الناس يستعجلون ببذل عرقهم ودمائهم في سبيل فكرة ولا يبذلون الوقت والفكر في دراستها، حتى تنضج صالحة في عقولهم وقلوبهم.

سَكْرَة مُزمنة

المسلسل السوري «صقر قريش» ناجح وشهير، يَحكي قصة «عبد الرحمن الداخل»، الأمير الأموي الذي ينجو هربا من مذابح العباسيين، ثم يصل للأندلس ويجد مناصرين له فينصبونه أميرا عليهم، كان معه خادمه «بدر» الذي شاركه في ملحمة فراره وتكريس مُلكه في الأندلس، غَرِقَت حلقات المسلسل كلها في حروب متتالية ودامية بلا توقف،تمردات وخروجات وتعصبات قبلية، سلسلة متصلة من القتال والقتل والتصدي للتمرد، تحالفات مع قبائل ضد قبائل أخرى، ثم تتغير التحالفات لينقلب على أنصار الأمس،حتى يمرض «صقر قريش» بمرض الملوك «الشك»،ويصبح الأمر بالقتل أسهل قرار، والمبرر واحد،الخيانة، يشك في أقرب الناس إليه، حتى يشك في «بدر»أخلص الناس له، فيغادره خادمه منكسرا، وتمر السنون، ويشعر وهو ملك قابض على دولته أنَّه وحيد، لأنه تخلص من الكل، البعيد والقريب والعدو والحبيب، استقر ملكه واضطربت نفسه، حتى غمر قلبه الوحشة، واحتلت الشيخوخة جسده، وابتعد الكل عنه خوفا من ظنونه وبطشه.

في النهاية يذهب «صقر قريش» إلى خادمه ورفيق عمره «بدر» في قريته البعيدة وداره الفقيرة المنعزلة، قال له وكأنه يُحَدِّث نفسه:

«هل تصدق؟ لم يتبق في قلبي أي ضغينة ضد بني العباس.. لقد شرب بني العباس خمر السلطة، فسكروا وبطشوا بنا، بلا رحمة وبلا حد،ونجوت منهم وحدي، ثم دارت الأيام وذقت خمر السلطة مثلهم، ذابت فيها نفسي

وتشـربها قلبـي، ففعلـت كـل مـا فعلـه بنـو العبـاس، الآن فهمـت ولـم أعـد أحقـد عـليهم، فقـد أصـبحنا معـا فـي بـرزخ الأشـقياء الـذين ذهبـت عـنهم السَـكرة فوجـدوا أنفسـهم مساكين»

* * *

الـدول فـي العـالم أنـواع كثيـرة، تُصَـنَّف بحسـب الزاويـة التـي تنظـر منهـا إليهـا،في العـالم الثالـث أردأ أنـواع الـدول، فيهـا ينقسـم شـعبها إلـى قسـمين،الأول: «مختـوم علـى قفـاه» وهـم الأغلبيـة، الثـاني: «مختـوم علـى قلبـه» وهـم الأقليـة التـي تعاقـدت بوثيقـة زواج حـرام بـين الثلاثـي الشـقي، ذوي السلطة «السياسية والمالية والدينية».

الصـنف الأول يسـتحق مـا ينالـه عـدلا وقَـدَرا، ومـع ذلـك فهنـاك دومـا أمـل فـي شـفائه أو شـفاء بعضـه، فـالخَتم لـيس أبديا،ولكنـه لصـيق وسـطحي مثـل البُقَـع أو الطفـح الجلـدي، الذي يزول بزوال الأعراض والأخذ بأسباب الصحة.

أمـا الصـنف الثـاني؛ فـلا أمـل فيـه، وقـد يقـع تحـت التعبيـر القرآنـي: "خَـتَمَ اللَّـهُ عَلَـىٰ قُلُـوبِهِمْ وَعَلَـىٰ سَـمْعِهِمْ ۖ وَعَلَـىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" (البقرة – 7)

ولهـذا أتعجـب مـن الطغـاة الـذين ذهـب سـلطانهم ومـد اللّه فـي أعمارهم،فعاشـوا سـنينا طويلـة ليفيقـوا مـن سـكرة السـلطة التـي نُزعـت عـنهم، ورغـم تتـابع رسـائل الجسـد التـي تخبـرهم بقـرب الرحيـل، لـم يندموا ولـم يتوبـوا ولـم يعتـذروا! «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ» الأنعام (28)

قـام برنـامج «شـاهد علـى العصـر» وبرنـامج «بـلا حـدود»، بعمـل عشـرين سـاعة حـوار مـع نائـب رئـيس جمهوريـة مصـر العربيـة فـي الفتـرة مـن 1963 إلـى 1975، كـان يملـك سـلطات هائلـة

في عهد «ناصر والسادات»، أغلب عمره في سلطة وقدرة على التحكم في حياة عشرات الملايين من المصريين، ثم نُزع عنه سلطانه وعاش سنينا طويلة في حالة تدين، حتى بلغ سن السابع والثمانية، فكان حديثه بالبرنامج قبل وفاته بأشهر قليلة، يمثل أكبر وآخر فرصة للحديث بدون مقاطعة، كنت أتمنى لو انتهزها وقال:

«أيها الشعب المصري أعتذر إليكم وإلى الله»، ثم يسرد بصدق ما صدر منه ومن زملائه من صواب وخطأ، ثم يحكم عليهم قيميا، يحكي عن «حروب وهزائم وشهداء وسجناء وتأميم وسلطوية»، فمن في مثل هذه المرحلة من العمر يدرك أنه على أعتاب لقاء الله، وسوف يُبعث وحده ويحاسب وحده.

لكنه لم يفعل، بل دافع بإصرار عن كل ذنوبه، وحين انتهيت من سماع كل الحلقات، أدركت أنَّه من الصعب تخيل نفسية من ذاق السلطة وسَكرتها، فالمسافة بيننا وبينهم هائلة، وكأنهم في كوكب آخر، فالمعقول والطبيعي أنَّ نَزع السلطة واقتراب النهاية يُزيل عن الإنسان قيود العِناد ويُثير مشاعر التوبة والرغبة الصادقة والأخيرة في التطهر، ولكن تغيير العقلية السلطوية يكاد يكون من المستحيلات.

* * *

يتحدث الناس بإعجاب وتعاطف مع ختام حياة «صدام حسين»، وهناك من يعتبرونه وليا من أولياء الله الصالحين، لأنَّ كبرياءه جعله يتقبل ختام حياته برأس مرفوعة وثبات، ورغم إعجابي بموقفه الختامي إلا أنني لم أخدع ولم أغفل عن حقيقة أنَّه، لم يندم ولم يعتذر عن الجبروت والظلم، فلا يهمني ثباته أمام الشامتين فيه من الشيعة وبقية خصومه، ولا يغرني حمله للمصحف أو ردوده

المتحدية أمام القاضي وثباته أمام حبل المشنقة، كل هذا يُحسب له من زاوية الكبرياء الذاتي، ولكن تتبقى المهمة الوحيدة المطلوبة منه، وهي أن يُزيل السحر عن الناس، أن يعتذر ويعترف بأخطائه الحقيقية:

«أنه أدخل العراق في حروب متتالية بلا هدف – أمر برش الكيماوي على عشرات الآلاف من الأكراد والشيعة – أدخل البلاد في حروب تسببت في قتل الملايين من الجانبين– أهدر بسفاهته ثروات البلاد».

كان عليه أن «يعترف ويعتذر ويتوب»، ولكن تغيير العقلية السلطوية يكاد يكون من المستحيلات.

* * *

ظهر الصحفي الشهير «محمد حسنين هيكل» قبل وفاته بشهور قليلة، في سلسلة لقاءات طويلة على قناة الجزيرة، يروي فيها ذكرياته وشهادته، أتذكر منها حلقات عن هزيمة 1967، وكنت انتظر بحرص هذه الحلقات،لإدراكي أنّ ما سيقوله امتحان كبير له.

مشكلة مصر أنها تصغر في عين من يتسلط عليها وينسبها إليه بسهولة،فيقول: «شعبي، بلدي، أرضي» يدهشني سهولة أن توضع مصر بشعبها في كفة، ثم يوضع من يحكمها في الكفة الأخرى، فتطير في الهواء كفة مصر وشعبها، وترجح كفة حاكمها، وهكذا مصر دائما، من يحكمها يرتدي نظارة مصغرة فيرى شعبها نملا.

في هذا اللقاء ظل يتحدث ساعات عن «ناصر»، لم يتحدث عن الشعب وما ابتلي به من «دماء وفضيحة وهزيمة وتهجير وشماتة الأعداء»، تحدث فقط عن أثر معاناة ناصر النفسية نتيجة الهزيمة، لنتخيل فتى يقود أهله للفضيحة والهزيمة والخسارة والقتل ثم يأتي شخص ليتحدث عن

تعبه النفسي نتيجة ما ألحقه بأهله، ويظل ينفخ في مدى ألم هذه المشاعر الرقيقة، ويرحمه بلسانه ويحاول بكافة الكلمات أنْ يَسحرنا للاندماج معه في تخيل القهر الذي أحس به بسبب «عملته السوداء والمشؤومة»، ولا يذكر الملايين من ضحاياه بكلمة أو ذكر أو تعاطف، لم يلتفت هيكل للشعب والتفت فقط لصديقه المسكين الذي يعاني نفسيا من الصدمة، ومن خطر زوال ملكه.

وكم أنت صغيرة يا مصر وهينة في نظر الطغاة، وكم يستحيل تغيير العقلية السلطوية.

الغريب أن هذا الألم الذي صوره لا يمكن أن يتسق مع مذبحة القضاة التي تلت الهزيمة، فقد كان طبيعيا بعد ما حدث أن يتعلم أن الديكتاتورية هي سبب الهزيمة الساحقة،ويعترف بالخطأ ويصححه بأن ينشر الشفافية والديمقراطية والعدل، ولكن بعد شهور من هزيمة 67 كانت مذبحة القضاة التي أراد بها «ناصر» المزيد من بسط قبضته على السلطة.

والأعجب أنني كثيرا ما أتحدث مع مثقفين عن هذا الموضوع،ولكن،تغلب العاطفة ونظل قابعين في عقلية ومشاعر الأهلي والزمالك والأغاني الوطنية، ويصعب أنْ نلتفت للإهانة الصارخة للشعب الذي اختزله «هيكل» في الإله الناصري، أرى عدم الشعور بالإهانة والنظر إليها ككرامة من أفدح عيوبنا، عقلية مشوشة في القيم والمنطق،تنظر لنفسها باستهانة بينما تنظر لمن يحكمها بصنمية وتأله.

* * *

مشكلة الشعوب العربية أنها لا تثور إلا من أجل «عِرض أو دين»، حين ينتهك الشرف المتمثل في الاعتداء على

النساء، وحين يتصور أنه مس بالدين، وهذه الثنائية شديدة الخطورة، لأن الإهانة لها صور كثيرة وبلا عدد،وبهذا يسهل على الحكام التلبيس على الشعوب، فيفعل الحاكم كل المظالم عدا ما يمس الثنائي الحساس «العِرض والدين» وهو آمن من الثورة، لأن الشعوب لا تفهم أن المساس بالعدل هو عين المساس بالدين، ولهذا فنحن العرب أكثر شعوب الأرض تقبلا للديكتاتورية وخضوعا للظلم والإهانة.

الستر الدامي

أسعد كثيرا بمن يبوح بما في نفسه ولا يخجل أو يحذر أثناء حكي ذكرياته،وخاصة الشخصيات الشهيرة والناجحة، لأنها تُهدي للناس دروس الحياة، فيتعلموا الاعتراف ببشرية الإنسان، ويعتدل المزاج وتتزن النفس،ويدرك الشباب أنَّ هؤلاء النخبة كانوا في بداية حياتهم عُرضة لأفعال ومشاعر خَرقاء، وهذا طبيعي، فالسذاجة لا بد أنْ تتخللنا من البدايات ولا ترحل بسهولة إلا وتحل محلها ثمرات نضج وخبرات تسامح مع النفس ومع الآخرين.

* * *

في شريط مسجل للفنانة «ليلى مراد»، صَرَّحت أنها أحبت طوال حياتها الفنان «محمد عبد الوهاب» وحكت هذه القصة:

في فيلم «يحيا الحب» بالإسكندرية، بين لقطات التصوير قالت له: «اسمع يا أستاذ عبد الوهاب، أنا عايزة أقول لك حاجة شاغلاني بقالها شهور.. أنا بحبك قوي يا أستاذ»

فالتفت إليها بهدوء، وهو يضع ساقاً فوق أخرى، وانتظرها لتتم كلامها... فقالت: «أنا خلاص، مش قادرة أخبي أكثر من كده، انت مش حاسس بالنار اللي في قلبي، ولا بالنار اللي بتحصل لي لو غبت عني، يا ترى بتحبني زي ما بحبك» وهنا ضحك عبد الوهاب، فغرقت ليلى خجلاً،مستأنفة حديثها: «معناها إيه الضحكة دي يا أستاذ.. أنا بتكلم جدّ،أنا بحبك من زمان، ودلوقت بحبك أكثر». واختفت الضحكة من وجه عبد الوهاب، ليحلّ محلها الغضب، ويقوم

بتلقينها أول درس قاسٍ في حياتها.. قال: «أنا أفهم إن دي قلة أدب... إزاي تتجرئي وتقولي لي كده يا ليلى».

* * *

هذه القصة شهيرة وحين أقرأها أتساءل: كيف تبوح «ليلى مراد» بهذه القصة الثقيلة، والتي تمثل إحباطا وإهانة ومرحلة من مراحل الطفولة العاطفية في الحياة؟

فأراها شجاعة وتجاوز للإحباطات وفلتات السذاجة، وإقرار بأنَّ حياة الإنسان مراحل من الوعي والخبرة، وأنَّ أحداث الحياة والتفاعل معها بصوابها وصالحها هي طبيعة الدنيا، فكل الأفعال التي تصدر من الإنسان في مراحل حياته ما هي إلا درجة تطور للوعي، ولا يتطور إلا بهذه الذنوب أو المنزلقات التي حين يتذكرها الإنسان لا يملك إلا أن يغمض عينيه في ألم، مثل من يتخيل تجرّع دواء شديد المرارة أو صفعة على الوجه زلزلت كيانه في وقتها، فمنحته درسا بليغا وأيقظته من الغفلة.

كلنا بشر، وكلنا في رحلة نمو الوعي سائرون، نخضع لسلسلة متوازية من نمو جسد وشعور وإدراك ووعي،هكذا الدنيا، فمن يتسامى ويتصالح مع هذه اللقطات المؤلمة يحيا في شفاء روح ولا يرتبك، ومن يحتفظ بها وبحرارتها في نفسه، يحيا شقيا، ويرتبط بعُقدة تعرقل سلام حياته.

* * *

وهل تمنحنا قصة «آدم» عليه السلام سوى هذا الدرس التدريب على طول العهد ثم سيطرة الغفلة وانفلات المعصية ثم التوبة، دعكم من الأساطير التي تحكي أنَّ آدم بكى على خطيئته أربعين عاما، أو ظل مستغرقا في ذكرياتها عمره كله يعض يديه من الندم، هذه ملاحم

يفبركها الوعاظ للتأثير على الناس، المعصية بعد انفلات سهامها تتحول إلى قضاء وقدر، ويصبح الاستغراق في التفكير فيها وتخيل تبعاتها، ذنب أعظم من المعصية نفسها، والأولى النظر للأمام والإصلاح والاستقامة بعد الاعوجاج.

المعصية لا تورث ذلا إلا للضعفاء الذين تَسحرهم الأوهام فمن كتب في ورقة الامتحان إجابة خاطئة، لا يستغرق في البكاء؛ بل يُتبعها بإجابات صحيحة لمزاحمة الإجابات الخاطئة.

* * *

يغتاب إنسانٌ شخصا ما، يندم بشدة ثم يذهب إليه ويطلب منه المغفرة،ويقول له: «سامحني لقد قلت في حقك قولا» وهناك من يسامح بلا سؤال، وهناك من يُصر على أن يعرف ما قيل فيه كشرط للمغفرة،وكلاهما سيناريو ثقيل وشديد الضرر، لأن الحاصل هو امتلاء الصدور بالمشاعر السيئة، فقد علم الآخر أن تلك الغيبة أصيلة، لأنها تشي بأنه يحمل في صدره مشاعر سيئة مازالت تملأ صدره ولا يمسحها اعتذاره عنها ، أنا شخصيا لو طَبّقت هذا السيناريو مع كل من اغتبتهم، فهذا يعني أنَّ يوم القيامة سوف يكون يوم الفضيحة، سوف أكون ملطشة لكل الناس، وكما يقول المثل: «إللي ما يشتري يتفرج».

لا أعترف إلا بالقانون الإلهي:

"مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ".. (الأنعام – 160)

العُمْلة يوم القيامة «حسنات وسيئات فوق كفتي ميزان»

ويـوم القيامـة: «وَنَـزَعْنَـا مَـا فِـي صُـدُورِهِم مِّـنْ غِـلٍّ إِخْوَانًـا عَلَـىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ».. (الحجر – 47)

فلنعمـل صـالحا ولنجتهـد أن لا نظلـم، ولا نلتفـت إلـى مـا يفـرط منا، فثمرة الإصلاح ستعوض كل شيء وتعالج كل ضرر.

* * *

فـي التـاريخ الأوربـي أخبـار عـن أبنـاء غيـر شـرعيين لشخصـيات شـهيرة مثـل «بابـا الفاتيكـان أو ملـوك أوربـا»، وطبيعـي أن تَـرِد أخبـار كثيـرة عـن أبنـاء غيـر شـرعيين لشخصـيات أقـل، سـواء كانوا من النبلاء والعامة.

في كتاب «قلبك يوجعني» لأنيس منصور هذه الفقرة:

فكثيـر مـن العبـاقرة أبنـاء غيـر شـرعيين .. «الأديـب الإيطـالي بوكاتشـيو والفنـان العظـيم دافنشـي والمستشـار الألمـاني فيلـي برانـت والأديـب الفرنسـي ديمـاس الابـن والرسـام الفرنسـي سـيزان والرحالـة والمغـامر البريطـاني لـورانس والفنانـة صـوفيا لـورين والسياسـي الأرجنتينـي خـوان بيـرون والـزعيم الألمـاني هتلـر والأديـب السـويدي سـتراندبرج والموسيقار الألماني العظيم فاجنر»

وقـد ننظـر نحـن العـرب لهـذه الأخبـار علـى أنَّهـا انحـلال مجتمعـي، ولكـن الحكـم الصـحيح علـى هـذه الأخبـار، أنـه شـجاعة وواقعيـة مجتمعيـة، فـلا يوجـد مجتمـع علـى الأرض بـلا خطايا وذنـوب منفلتـة وضـعف، كـان خَيار أوروبا المبكـر إظهـار ذنـوبهم المنفلتـة علـى السـطح، وبهـذا يتعامـل معهـم المجتمع بأي وسيلة تكون أقرب للحكمة والواقعية.

لكننـا فـي مجتمعنـا العربـي نلاحـظ اختفـاء هـذه الظـاهرة تمامـا، فهـل هـذا يعنـي أننـا مجتمـع نقـي بـلا ذنـوب، هـذا مسـتحيل، ولا تفسـير سـوى أننـا مجتمـع يخفـي ذنوبـه أو يكتمهـا أو يغتالهـا فـي السـر، وفـي كـل هـذه الحـالات لا وصـف

سوى «الخبث»، والمجتمع الخبيث لا يمكن أن يوصف بالصحة، ولا أمل في شفائه، ويعني أيضا أن هذه الشخصيات التي ذكرها أنيس منصور لو ولدت في بلادنا لماتت في مهدها.

***

مجتمعنا العربي يتصرف مثل «المرأة التي تُخَبِّئ كُناسة البيت أسفل السجَّاد، وتُكدِّس الملابس تحت السرير وتقضي وقتها مرتبكة في اخفاء الكراكيب والفوضى عن الناس، ولا يهمها إلا أن تبدوا أمام الناس مرتبة ونظيفة وأنيقة».

***

يتردد على كل الأفواه الدعاء بنعمة « الستر»، عيشة مستورة وميتة مستورة وتمتد الدعوة بالستر في يوم القيامة، ولا خلاف على هذه الدعوة، ولكن بحجمها الحقيقي وليس الحجم الذي تمدد وتضخم شعبيا،فانكشاف الستر من أكثر ما يرعب الإنسان العربي، ويقترن الستر عندنا بما نسميه الشرف، وتزويج البنات يعبر عنه بجملة «ستر البنت»، لا يوجد عندنا مصطلح «ستر الولد»، والذي عنده بنات يظل قلقا حتى يسترهن بالزواج.

***

تكررت حتى القرن الأخير حوادث الشرف، وخاصة بالصعيد والأرياف، وفيها يقوم الأب أو الأخ بعمل يصعب فهمه، حين يقتل أخته أو ابنته حين يمسها أي إشاعة أو فعل يمس سمعتها، لا يزال القضاء إلى اليوم يحكم برأفة هي أقرب للبراءة على مثل تلك الحوادث المسماة «حوادث الشرف» وهناك أخبار عن فتيات انتحرن لنفس السبب،ولكن اليوم بدأ يطرأ ظواهر جديدة، مثل أن ينتحر شاب أو فتاة

وبالبحث يُكتشف أن أحدهما تورط في علاقة عبر وسائل التواصل الاجتماعي ووقع تحت تهديد «الابتزاز» بالتشهير بالسمعة ونشر صور أو فيديوهات، ولأن العقلية لم تتغير منذ مئات السنين، كان الانتحار، فما الذي أوصل «الولد أو البنت» إلى نفسية إهدار الحياة مقابل ابتزاز من هذا النوع؟، لا شك أن السبب هو تلك الظاهرة الخبيثة التي تحدثت عنها، أننا نكتم أخطاءنا وذنوبنا، وحين تطفو على السطح لا نرى سبيلا سوى قتل أنفسنا أو ذوينا، وهذه ظاهرة خطيرة وشديدة التخلف ولا بد من مواجهتها، لا بد أن يكون للخطأ المنفلت مسار يتسرب منه في سلام دون أن يتسبب في مأساة، لا بد من الاعتراف بالضعف كعَرَض طارئ، لا بد من تحديد المقصود بالستر ولا بد من تقدير نعمة الحياة والاعتراف أنها لا تهدر مقابل ذنوب المجتمع وأصنامه القاسية.

في المجتمع النبوي كان هناك مرتكبون للخطايا ويُعاقَبون أمام الناس،وبعد ذلك يسير المذنب بين الناس في سلام ولا يخطر على بال أحد أن ينتقص منه، لأنه كان مجتمعا يضع البشرية في قدرها الصحيح، ولهذا فبالقياس نكتشف أنَّ المجتمع النبوي كان أرقى كثيرا من مجتمع اليوم العربي.

لذلك يجب أن يقوم الأدباء والإعلام بصياغة أعمال فنية وأدبية تصوغ حوادث وشخصيات شجاعة في مواجهة الأخطاء والانجراف وتنشر الوعي، بدلا من الخطأ الذي يقع فيه السينمائيون حين يصورون مشهد الأب وهو يقتل ابنته والبنت وهي تنتحر، بل يجب صياغة سيناريوهات مختلفة تفتح باب التوبة والعفو وتصب في دعم العفة.

بين يحيا ويسقط

أرى أنَّ خطأ وخطيئة العرب الكبرى شعار «يسقط» ، خطأ حين قلناها أول مرة ولم ندرك خطرها كشعار (هدم دون خطة بناء)،وخطيئة؛ حين قلناها ثانيا وثالثا وعاشرا. بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، نشطت الحركات التحررية ونادت نداءً واحداً: «يسقط الاستعمار»، وامتلأت الدنيا ب «يسقط» بلا عدد، والنتيجة أنَّ العالم العربي انجرف إلى خطر شديد، الحكومات العربية جالسة فوق «خوازيق» حادة فلا تهتم سوى بنفسها، والشعوب لم تعد تثق في الغد،والسبب قولنا «يسقط» بدون «يحيا».

بسهولة ووعي كسول، تستطيع أن تدرك ما تريد هدمه والتخلص منه،وبصعوبة ووعي يقظ ومثقف، تستطيع أن تدرك ما يجب بناؤه وإحياؤه، فأي شيء يسقط دون رؤية للبديل، سوف يحل مكانه الأسوأ،لأننا أفرغنا جهودنا في خطة هدم وفقط، بينما خطة البناء تحتاج حكمة، والحكمة عزيزة.

«وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا» (الإسراء – 81)

في هذه الآية حكمة بالغة لا تصدر إلا من السماء، الحق يَحضر فيزهق الباطل ويرحل، الحق يحضر وفقط ثم يرحل الباطل المَلول فالباطل لم يحضر إلا حين غاب الحق، مثلما يرحل الظلام بانتشار الضوء مهما كان خافتا .

وهذه وفقا لسنن الله «سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا» (الأحزاب – 62)

وحين ننادي «يسقط» نطلب من الباطل أن يرحل قبل حضور الحق،فيحل فراغ يشكل مصيدة للأشرار.

ولهذا قل ولا تقل:

قل يحيا العدل ولا تقل يسقط الظلم فإن الظلم كان زهوقا.

قل يحيا السلم ولا تقل تسقط الحرب. فإن الحرب كانت زهوقا.

قل يحيا الإيمان ولا تقل يسقط الكفر. فإن الكفر كان زهوقا.

قل تحيا الديمقراطية ولا تقل تسقط الديكتاتورية. فإن الديكتاتور كان زهوقا.

قل تحيا الكرامة الإنسانية ولا تقل تسقط الإهانة. فإن الهوان كان زهوقا.

اجعل من رؤيتك وخطتك ونداءك ... «إحياء قيمة»

ففي حياة القيم سِلم في الوسيلة وحَمد في الغاية ورُشد في العاقبة.

* * *

هناك ملحوظة نتغافل عنها تأثرا بسحر الأناشيد الوطنية لم يرحل الاستعمار عن الوطن العربي فقط بسبب ملايين الشهداء، الشهداء أزعجوا المستعمر ولكن لم يكونوا السبب المباشر للجلاء، فالفرق كان هائلا بين أدوات المستعمر الحديثة والقاهرة «بنادق رشاشة وأسلحة كيماوية ومدافع وطائرات»، وبين أدوات الشعوب المستعمرة «المتخلفة»، لم يرحل المستعمر إلا حين تحطم على صخرة الحرب العالمية الثانية، لم يعد في طاقتهم تحمل تكلفة الاحتلال، وجاء المستعمر الأمريكي الشاب ليحل محله، وأشار بيده إلى كل المستعمرين، فتراجعوا جميعا وتركوا فراغا هائلا ليملأه الأمريكي بطريقته، وفي

سنوات قليلة جرت انقلابات عسكرية بالتراضي مع الأمريكان، ليبدأ عصر الاحتلال الرخيص عن بعد وصعد لكراسي الحكم العربي ملوك وزعماء مغامرون، وصعد معهم أبواق الشحن القومي، فأصبح القادة الجدد آلهة لهم سلطة مطلقة في بلادهم، تمارَس عبادتهم في المدارس مع تحية العلم وفي الأغاني الوطنية والساحات الرياضية وفي كل تجمع شعبي، تسبيح بفلان حبيب الملايين، وفلان إلى الأبد، وفلان إبن الأنبياء، وتصاعدت هتافات «يحيا ويسقط» خلال ثلاث أرباع القرن الماضي، وكلما خرج شعب من فخ حاكم مطلق دخل في فخ الآخر بلا نهاية لهذه اللعبة المشؤومة على العرب، لعبة يحيا ويسقط ولعبة انتظار الزعيم الكاريزما والصخّاب و الملهم والطيب، الطيب بعكس السابقين الأشرار، فهم دائما أشرار، ومازلنا نحلم بالطيب، لأننا طيبين قوي.

* * *

لا بد أن تتوقف دوامة «يحيا ويسقط»، ولا بد أن نفهم ونتوقف عن فكرة أن يتزوج أو يغتصب شخصٌ شعبا كاملا بعقد غليظ ثم يجعل العصمة في يده، ويظل الشعب يسبح بحمده ويُختزل الشعب كله في رغبات وقرارات ونزوات هذا الإنسان الإله، الخلل في أفكار الشعوب التي تحلم بحكم الأصنام البشرية، في حين أن الواقع أسهل وأنجح، واقع أن نكون دوائر وتروس لها أسنان تتشابك وتتداخل لتدير عجلة الحياة بكرامة ورشد، وواقع أن تتعاون الطوائف معا بحب وبلا تحامل وبعيدا عن فكرة الولاء والبراء القاتلة، وحين يحدث هذا لن يستطع أي أنسان أن يمد يده ليجذب الشعوب من رقبتها، لأنه لن يجد حول رقبتهم طوق الخلاف والتخلف.

* * *

حين انطلقت الثورة الفرنسية عام 1789م، كان الصراع بين التجمعات «الليبرالية» التي تريد تغييرا جذريا عنيفا وأنصار النظام «الملكي» الذين يريدون إصلاح متدرج داخل الملكية، فيكون ملكية دستورية، ودائما ما تنحرف العاطفة الجماهيرية للحلول المتطرفة الجذرية، فانجرف الجميع إلى استئصال الملكية، وأعدم الآلاف ومعهم الملك وزوجته وحاربت كل الدول الأوربية فرنسا حروبا متوالية، وغرقت فرنسا في دوامة من العنف لعشرات السنين حتى استقرت ونالت ثمرة الثورة متأخرا.

حين انطلقت الثورة البلشيفية عام 1917م، كانت الراية تتبنى فكر «كارل ماركس»، وهي أفكار نبيلة لصالح الطبقة الكادحة وهم أغلب الشعب، ولكن سرعان ما تغلب العنف وأعدم القيصر وأبنائه، وسارت البلاد في مسار تغيير متطرف كان وقوده الطبقة الكادحة التي رفعت الراية من أجلها، وقتل وسجن منهم عشرات الملايين.

حين انطلقت الثورة المصرية عام 1952م، كانت الديمقراطية والعدالة الإجتماعية من أهم مبادئ الثورة وسرعان ما كانت إسرائيل هي حجة تأجيل الديمقراطية وغياب الديمقراطية يفرز كل الشرور والفساد والاحتكار والاحتقار.

في الفتنة الكبرى كان الصراع من أجل استعادة الشورى وقتل عشرات الآلاف من أجل هذا الهدف، ثم انزلق المسلمون إلى هدف حق آل البيت في الحكم، ومازال الصراع إلى اليوم، ونسي الناس الشورى التي قتلوا وقاتلوا من أجلها.

في الأمثلة الأربعة، نماذج للثمن الفادح لتركيز كل الجهود على «يسقط»، والتهاون في خطة «يحيا» التي سريعا ما تنحرف إلى هدف ضال.

* * *

من أصعب الفترات في تاريخ الشعوب والأفراد، مرحلة الانتقال الطبقي، حين يصعد الإنسان طبقيا يحدث اضطراب للجميع، والأمثلة كثيرة.

مثلما حدث عقب ثورة 1952 بمصر، تأميم ممتلكات ومصادرة أراضي زراعية ومنحها للفلاح، وجرت عملية إعادة توزيع الثروة وتعظيم المهن العسكرية وتبادل المقاعد بين أثرياء وفقراء.

حين انطلقت بكثافة موجات السفر للعمل بالخليج، ضُربت الطبقة المتوسطة في الصميم وحاز أصحاب المهن الحرفية المال، بينما افتقر الموظف وأصحاب المؤهلات العليا ودكاترة الجامعة.

مع هذا الانتقال يصعد الإنسان بأخلاق وطباع ونفسيات ومفردات وعادات طبقته، ويصاب بالقلق والتوتر في المنطقة الجديدة، يريد أن يتلاءم وينسجم معها بلا تكلف ويظل في تجاذب بين طبقته القديمة والجديدة، وتصبح مشاعره أشبه بمن قفز في الهواء، ولا يحدث الاتزان إلا مع الجيل الثاني والثالث من أولاده، وهذا يحتاج زمنا.

في هذه الأمثلة للانتقال الطبقي تدور عمليتان متزامنتان هدم ما يجب التخلي عنه مما ينتمي إلى الطبقة القديمة وبناء ما يجب التحلي به للتماشي مع الطبقة الجديدة وبمرور الأيام تتجذر طباع ومشاعر ومفردات الطبقة الجديدة فيه.

والغريب أننا منذ رحل الاستعمار عن بلادنا والشعوب العربية تعاني انتقال طبقي متسارع ولا يتوقف، الأمر أشبه بعملية حرث الأرض قبل جني الثمار، فلا تتمكن أي طبقة من الاستقرار في طبقتها الجديدة، لأنها بمجرد شعورها ببعض استقرار يحدث انتقال أخر أكبر حدة يزلزل الجميع ويدخلهم في دوامة مشاعر الاغتراب.

عمليات الهدم الحاد والبناء الحاد مستمرة وهي بالضبط نفس عملية،«يحيا ويسقط»

***

في الصين، في عام 1958، شن الرئيس ماو الحرب على العصافير الصغيرة التى سرقت قليلا من الحبوب، وأمر بقتلها لزيادة إنتاج الحبوب،حيث قال "الطيور هي حيوانات عاملة للرأسمالية"، وبالفعل شنت حكومة ماو حملة للقضاء عليها، وطارد الصيادون المحترفون والقوميون العاديون العصافير، و دمر الناس أعشاشهم وحطموا بيضهم، لم يدرك "ماو" أن العصافير كانت تقتل الحشرات التي تسببت في أضرار أكبر بكثير للزراعة، أدى الخلل الإيكولوجي الناتج عن ذلك إلى تفاقم المجاعة الصينية الكبرى ما بين 1958 و1961 والتي قتلت ما بين 15 و45 مليون شخص، وهناك قصص كثيرة مشابهة تبرز أن الهدم دون دراسة وخطة بناء لها عواقب كبيرة.

***

في برنامج "شاهد على العصر" الذي يستضيف «مهاتير محمد»، سأله المقدم عن سبب مدحه في مذكراته الاستعمار البريطاني، قال: «قبل الاستعمار البريطاني كان الحكم الملكي الاستبدادي يُسيطر على كل شيء ويحوز كل شيء، فلا يصل كثير خير إلى الشعب، بينما الإنجليز

منظمون، وأسلوب الحكم كان مفيدا مقارنة بالاستبداد فالقانون مطبق ولم تكن هناك اجراءات عشوائية خارج القانون ضد الأفراد، وكانت جباية الضرائب أكثر كفاءة وتؤول إلى خزينة الدولة وليس الملك، ويؤخذ منها للتعليم والعلاج الطبي والإنشاء، وضبطوا القضاء وأداروا الأمور بشكل أفضل من المَلك»

ومازال هذا الزعيم النادر يدهشني بسلامة صدره ورجحان عقله، فقد كان مجاهدا ضد الاستعمار ولكنه مدح ما فيه من خير، والخلاصة التي قالها هي: «الاستبداد أسوأ ألف مرة من الاحتلال»، ولهذا حين تحررت ماليزيا من الإنجليز اختارت ممارسة الديمقراطية وتبرأت من الاستبداد وبهذا فهي اختارت خطة البناء التي ستتلو الهدم، فنادت بسقوط الاستعمار وإحياء الديمقراطية، وها هي ماليزيا اليوم في مقدمة دول العالم.

* * *

أسوأ قرار في الدنيا هو الانسحاب بكلمة واحدة: «انسحبوا».. تخيل في خضم سخونة الحرب والكفاح والصراع يصدر أمر «مثلج» بالانسحاب! على المستوى الاجتماعي صدر الأمر للمصريين بالانسحاب منذ رحل الإنجليز، انسحبوا وسوف نوفر لكم وظائف وتعليم وسكن وأجهزة تنفس صناعي وزراعي ومعدني، «ومن دقنه وافتل له»، ولم يتعلم المصريون المسؤولية، واليوم يحيا الجميع في مناخ الانسحاب، والانسحاب يعني فوضى ولا خطة ولا وسائل حماية، «كله يجري يا جدع»، يوم يفر المرء من أخيه، وعندما يهرع الكل ويجري ويفر، يدوس ويهرس ويقسو ويخذل ويتخلى.

هذا هو المناخ وهذه هي أخلاق الأتوبيسات التي تتزايد كل فيمتو ثانية مصرية، ويتساءل الناس؛ ماذا حدث

للمصريين؟، المصريون في عملية انسحاب منذ زمن طويل حتى أولادهم وأحفادهم يولدوا منسحبين،المصري يهبط من رحم الأم إلى ملعب الانسحاب خضوعا للجينات الوراثية.

المصريون معذورون حين تخلقوا بأخلاق الأتوبيسات نتيجة هذا المناخ الراكد. وغير معذورين حين رضوا بإدمان الانسحاب لعشرات السنين وآه لو يصمت المصريون، في الصمت استدعاء للحكمة والفكرة، ولكننا منسحبون ونحن نثرثر، نمتلئ حزنا على سوريا وفلسطين والسودان ولا نتذكر مصر.. أفغانستان التي حزنوا عليها، بدأت قريبا تصنيع المواتير وتتقدم بسرعة كبيرة.

أعتقد أنه لا يوجد إلا حل واحد: أن ننسى أحلامنا المشروعة ونوقن أن فرصة الحياة قد تم إفسادها وستظل تمتد مساحة الفساد بلا توقف حتى نقرر أننا مسؤولون، ننسى أحلامنا المشروعة ونحيي أحلام النبلاء الجمعية.

ننسى الأيدلوجيات المنتهية الصلاحية.. (الدينية الماركسية الناصرية الليبرالية)، الأيدلوجية وعاء يدنس كل طاهر يوضع فيه، وقد اكتوينا بالأيدلوجيات قرنا كاملا، علينا أن ننظف الشارع ونكف عن تلميع بلاط البيت.

الوَسَخ يأتي من الشارع ولن ينظف البيت حتى يتوقف هذا الوَسخ عن تسربه للبيت، عين الدنيا هي الشارع وليس البيت، لا بد أن نفهم هذا المحبس الرئيسي في الشارع وليس في البيت.. لا بد أن نفهم هذا.

الدنيا ليست دروس خصوصية وبكالوريوس وعروسة وعربية وموبايل.الدنيا زرع قبل حصاد، وبناء قبل هدم ويحيا قبل يسقط.

التعاطف مع الفشل

كان لي زميل في العمل ومن دولة عربية شقيقة، يُعجبني ثقافته وتَقَبله للنقاش والحوار الهادئ والخالي من العقد النفسية، ولكنه كان «ملحدا» وقارئا لكثير من الكتب التي تغذي هذا الإنكار، أدرت حوارات معه حول هذا الموضوع ورغم أنَّ الحوارات قوية ومُثمرة بيننا، إلا أنني أحسست تفاوتاً بيني وبينه في تقدير أهمية هذا الموضوع، أنا أراه أولوية بينما زميلي يتعامل وكأنه فرغ من فكرته ولا يريد مراجعتها.

قال: «لديّ أولويات كثيرة تتقدم على بذل مزيد جهد في تلك الفكرة،لدي طموحاتي ودراساتي وعملي». فما كان مني إلا أن توقفت عن التطرق لهذا الموضوع واستمر الود بيننا، وأصبح في نظري إنسان اختار الفشل في موضوع مصيري، وهذا قراره، وقد قمت بواجبي تجاهه، ولن أقعد معه في فشله.

وهذه هي طريقتي في التعامل مع الصديق الذي عانى «صدمة مالية،عاطفية، اجتماعية، فكرية... إلخ»، أظل بجانبه أدعمه في مواجهته لصدمته، لكن لنفترض أنه كان ضعيفا واختار أن يظل سنوات يتغنى بالحبيب الغادر، ومندمجا في أسْرِه في الماضي العزيز، واختار أن يستمر في انحداره النفسي نتيجة الصدمة أو العَشَم المخذول ، هؤلاء اختاروا الفشل بإصرار، فما عليك إلا مواصلة حياتك وتحقيق إنجازاتك، ونشر الخير الذي عندك في أرض أخرى مُثمرة وليست عاقرة، ولا تتخلى عنه ولكن لا تَقْعد معه، فالفشل مُعْدي.

يشتهر المَثَل «جزاء سنمار»، عندما بنى مِعماري شهير قصرا ليس له نظير في العالم، قال للملك: «هذا القصر يرتكز على حَجَر واحد، إذا أزيل سينهدم القصر»، فقال الملك: «هل غيرك يعلم مكانه؟»، قال: «كلا»، فأشار الملك لحرسه، فألقوا المعماري «سِنمار» من أعلى.

***

أول ما يجب على من يتصدى للشبهات الدينية، مهما كان دينه؛ أن يعي أنَّه لا يجب أن يتعامل مع الدين مثل «قصر سِنمار»، فمن المضحك تصور أنَّ الدين يرتكز على (زلطة) لو انفركت ينهدم، هل هذا معقول!.. أغلب من استمعت لهم، أو كَتَب سبب إلحاده، يذكر شبهة أو شبهتان وبسببهما يُنكر كل شيء.

الذي يسمع مقالة عن زوجته فيطلقها، إنسان بداخله دوافع خفية تتحين فقط مجرد كلمة ليتخلى عنها، والذي يسمع شبهة فيسارع بالإلحاد، لديه دوافع خفية وراء هذا الموقف، دين يتبعه عشرات ومئات الملايين عبر السنين، لا يمكن أن يكون أساسه مجرد حجر، الدين له أساسات متساندة ومستقلة كثيرة وعميقة، ويجب التمييز بين الأساس والزخارف.

***

جهاز الكمبيوتر شديد التعقيد ومتعدد الوظائف، وله طريقة في الاختبار،ولا يمكن أن يُختبر بالمطرقة، سوف يتحطم من ضربة واحدة،وسوف يدَّعي الأحمق أن الجهاز فشل، بينما يجب علينا أولا فتح دليل الجهاز «الكتالوج» وقراءته جيدا ثم اختباره بالوسائل التي ذكرها المخترع، ثم تختبر الدقة والوظيفة والصلاحية والكفاءة والسرعة الخ.

كل من تحدث عن القرآن الكريم بالنقد اختبره بالمطرقة هذه ملاحظتي، وأقصد بالمطرقة، وسيلة اختبار لم يذكرها من أنزل الكتاب وأرسل الرسول، الطريقة الوحيدة التي تحدى بها القرآن ومازالت قائمة إلى يوم القيامة هي؛ «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» (النساء – 82)

وهذه هي وسيلة الاختبار الوحيدة. من يثبت بالدليل القاطع اختلافا كثيرا، هو الذي يستحق الحوار وبذل الجهد للتحقق من كلامه، ولو أفلح في إثبات الاختلا ف سوف نعترف معه أنَّ هذا القرآن أنتجه بشر، وهذا لم يحدث حتى اللحظة.

لم يطق صديقي صبرا، سألني: هل تتوقع أن أنتظر حتى تتحفنا بسلسلة مقالات، وأظل في قلقي؟، هل الإسلام في خطر؟... وما هذا الخطر؟..وما مدى خطورته؟.. لم أفلح معه في أن أؤجل الإجابة.

– «نعم الإسلام في خطر، يتجاوز خطر التتار حين اجتاحوا العالم الإسلامي، خطر يضرب في الجذور، ولن يقدر على الصد عنه السيف ولا صدور الرجال، فالسلاح فكري وعلمي وتاريخي، ولا يفل الحديد إلا الحديد، ولن ينقذ الإسلام إلا القرآن الكريم، لأنه معجزة ودليل الإسلام».

سفينة تحمل أحجارا كريمة، يتاجرون بها في رحلتهم بالمرور على الموانئ،يقوم الطاقم بشراء بعض الأحجار المقلدة للذكرى من كل مدينة،وتتناثر وتختلط مع الأيام بالأحجار الكريمة، احتلت الأحجار الزائدة مكانا يكاد يخنق الأحجار الأصلية الكريمة، وفي أحيان كثيرة يُحتار في تمييز بعضها من بعض، أربكت الأحجار الزائفة مسار التجارة لطاقم السفينة.

سرت سمعة بين الناس أن هؤلاء يخلطون ويبيعون بضاعة مزيفة، أصبح حتما على طاقم السفينة أن يراجع نفسه ويفرز كل ما عنده، ليستعيد سمعته ومكانته في عالم التجارة، ثم كان الصراع بين الطاقم، فالأغلبية نسوا أنَّه خالطه أحجار زائفة، ويعتقدون أن الكل أصلي، والأقلية النادرة مازالت منتبهة للفرق الكبير بين البضاعتين، ومازال الصراع مستمر على السفينة، وكثير منهم يهزمه الملل من الصراع فيغادر السفينة.

* * *

عندما يقال:

– في القرآن هناك لفظ "..". وهو لم يثبت تاريخيا أو ثبت عكسه تاريخا!

– لماذا تكرار الجنة والنار؟ هذه القسوة لا توجد إلا في الكتب الإبراهيمية!

– لماذا سأل القرآن في هذه الآية ولم يجب؟ كان عليه أن يرد ويقول كذا.

– الحديث الصحيح المتفق عليه يتناقض مع العلم والبحث والعقل

كل هذه الأقاويل لا تتوجه للجذور، أول ما يجب أن يخطر ببالك فور سماع أي شبهة في دينك، لو كانت نفسيتك ساذجة ومقلدة وقليلة الإيمان فسوف تجزع وتهتز، وتسارع للدفاع بقسوة أو التخلي برعونة، ولهذا لا بد من أن تتذكر مثال (جزاء سنمار) الذي ذكرته سابقاً، ثم تبحث عن الإجابة بهدوء.

الدين مثل البناء، عندما يراد هدمه، فلا بد من البحث في جذوره وأساساته كلها، فأي شبهة، حتى لو كانت في أحد

الأساسات، لا تعني أن كل الأساس في خطر، بل سيظل هذا الدين محمولا ومبررا، حتى يُختبر الأساس الموجه له النقد،يُدرس ويراجع النقد دون جزع أو ارتعاش أو خوف من أن يُهدم البناء كله، ولو هدم البناء كله فما الذي يخيفك؟،الدين هو بناء الله، ومن أنزل الدين هو الكفيل بصموده أمام الأسئلة، إنْ كان الدين أصيلا؛ سيتأكد سلامة الأسس كلها، إن كان الدين باطلا، سوف تتسرب الشكوك والنقد إلى بقية الأساسات حتى تقع كلها.

من هذا المفهوم؛ يجب أن تبدأ ب (تصنيف الشبهة) قبل أن تتسرب لنفسيتك وعاطفتك، فلا يعقل أن يعترض أحدهم على جهاز تكييف معطل في ناطحة سحاب،كبرهان على أن البناء كله واجب الهدم، أغلب من ألحد أو تحول لدين آخر كان بسبب التكييف المعطل، من الممكن البحث في التكييف أو أجهزة التكييف كلها، فهي ليست أصلا وممكن التخلص منها أو استبدالها.

وعندما أحدد حديثي عن الإسلام، فأنا أتحدث عن بناء متين أمام التحدي، ما يظن أنها نقاط ضعفه هي نقاط قوته،الإسلام مبني على أساسات كثيرة وشفافة وبارزة للعيان، مع أنها عديدة وعميقة في التربة،وكما يقول المثل العامي: «على عينك يا تاجر».

الأساس "الكلمة" المحفوظة حتى اليوم والتي هي معجزته،يتحدى بها الماضي والحاضر والمستقبل، القرآن به أزيد من ستة آلاف آية محفوظة،تلقي الضوء على مسارات الإسلام «التشريعية والأخلاقية والفكرية والنفسية والتاريخية والفلسفية والعلمية.. الخ، هذا العدد الهائل من الكلمات، لو كان بهم أي ثغرة أو تناقض، ما كان ليصمد حتى اليوم، ولا يزال التحدي قائم.

عندما اخترعت المطبعة، قام الفاتيكان بترجمات للقرآن الكريم، واشتغل عليه جيش من المستشرقين، فماذا كانت النتيجة؟ لم يستطع أحد إبداع أي نقد يمس الأساس،أكثر من ستة آلاف آية ولا يكتشف اختلاف!، ولو كان من صنع بشر لكانت الاختلافات بلا عدد، وهذا سر سريان الموجة التي تتخاصم مع التراث، لأن أكثر سهام النقد كانت توجه للتراث وليس القرآن، ولكن لا خلاف أن معجزة الإسلام هي القرآن وحده.

* * *

– من الذي يستطيع أن يثبت بدليل مباشر مثل ضوء الشمس أن الله موجود!

– من الذي يستطيع أن ينفي بدليل مباشر مثل ضوء الشمس وجود الله!

هناك من أعلن جائزة فلكية لمن يستطيع الإجابة ولم يتقدم أحد!

الإيمان يلزمه قفزة!

الإنكار يلزمه قفزة!

* * *

هناك من يدَّعي متباهيا أن أكثر المنكرين والملحدين من الأذكياء والمثقفين. هذا كلام ضال مضلل. المؤلهون الأذكياء والمثقفون والعلماء أضعاف عدد الملحدين. وكل فريق لديه سلسلة من الأدلة والمنطقيات المتتالية. ولكن كل هذه الفرضيات والأدلة والإثباتات في الاتجاهين لا تكتمل بدون قفزة، قفزة يتلوها قرار الإيمان أو الكفر؛ «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرً» كيف أنَّ أداة الهدي هي نفسها أداة الضلال؟

هي القفزة التي تنسجها أو تفرزها النفس البشرية الممتحنة في الدنيا،الحق ليس بهذه الصعوبة فمن أراد البحث عن الحق لا بد أن يصل ويقترب،ولكن الصعوبة في الإنسان، فالله تعالى لم يجعل معرفته والوصول إليه مثل العملية الحسابية، معادلات تنتهي إلى إثبات جازم مُبهت بأن الله موجود، بل جعلها آيات متتاليها ومنطقيات متساندة يتّبعها الإنسان مخلصا فيؤمن أو معاندا فينكر.

هناك فيلسوف شهير ذكر تلك القفزة وهو صاحب المصطلح ، وهناك المثل الإنجليزي:

Sometimes you just have to take a leap of faith.

«أحيانا عليك أن تقرر قفزة الإيمان»

وهذا لا يعني ان تغمض عقلك وتقفز قفزة الإيمان. بل أن تستخدم عقلك في خطوات متتالية منطقية مخلصة حتى تنتهي إلى الخطوة الأخيرة؛ لأنك تؤمن بغيب وليس شهادة، ولهذا وجبت القفزة.

الوعي بالوعي

من أقوال الأديب اللبناني (ميخائيل نعيمة): «لكل كلمة أذن، ولعل أذنك ليست لكلماتي فلا تتهمني بالغموض»،هذه الكلمات تذكرنا أنَّ الأذن وحدها لا تكفي لاستيعاب الكلمة، بل يجب رفع غطاءها المعنوي والذي هو أشبه بالجفن للعين، وحين يُرفع تنفعل الأذن بالكلمات المسموعة.

***

في الفيلم المصري «ألف مبروك»، يظل «أحمد حلمي» ينتقل من حلم إلى حلم، يستيقظ ثم يكتشف أنَّه يدخل إلى نفس الحلم، ويظل يدور في دوامة الحياة والموت واليقظة والمنام والحلم، لا يستطيع أن يميز حاله واعيا أم نائما، فهل تتشابه هذه الدوامة مع نموذج حياة أغلب البشر؟.

هناك طريقة شعبية لمعرفة الحالم من اليقظان، وهي أن يَقرصه أحد، فإن تألم أدرك أنه يقظان، ولكن الوعي لا ينفع معه القَرص، فكيف يعرف الإنسان أنه واعي!

الوعي الذي أقصده، الجوهرة المُهْدَرة لدى غالب البشر،والمفارقة المضحكة والمدهشة أنَّ الجميع يظن أنَّ الجوهرة في خزانته، ولكن كما قال "سيد درويش": «سرقوا الصندوق يا محمد.. لكن مفتاحه معايا».

الوعي حياة، وغياب الوعي وهم حياة أو بعض حياة، عشت حياتي أقرأ كثيرا وبلا انقطاع، وكنت أفخر بأنَّ ما يسري في دمي هو أكْسير الوعي، ومرت سنوات العمر حتى كاد أن ينقضي كله، ثم اكتشفت أنَّه؛ لا وعي بلا اختبار، بلا شك، بلا

أسئلة متواصلة، بلا افتراض غياب الوعي، بذلك يبدأ الإنسان رحلة استرداد الوعي، خطوة خطوة،يلملمه حتى ينال درجة أكبر.

* * *

في كتاب «قصة الإيمان – لنديم الجسر»، أراد الحكيم أن يُعلّم الشاب أن ليس كل ما يُثبته الإنسان بالحساب يستطيع أنْ يَبْلغه وعيه وخياله، قال له: "لو أعطيتك ورقة سُمكها ملي مليمتر وطلبت منك تقطيعها نصفين،ثم تضم النصفين معا وتقطعهما نصفين، وهكذا حتى أربعة وستون مرة، فلو وضعت تلك الأنصاف في عمود رأسي؛ كم يبلغ طول العمود ؟» فأجاب: «لا يتعدى بضعة أمتار قليلة»،فطلب منه أن يحسبها بقواعد الحساب،فكانت المفاجأة أنَّ هذا العمود لو وضع على الأرض يكاد يقترب من القمر!، وبعد الحساب لم يستطع أن يتخيل معقولية هذا العمود رغم إثباته حسابيا، فتعلم أنْ يتواضع بوعيه البشري المحدود.

* * *

لكي تدرك محدوديه وعيك عليك أن تتخيل تسلسل الأماكن التي تحيط بك؛ «الحجرة، المنزل، البِناية، الشارع المدينة، المحافظة، الكرة الأرضية،الشمس، المجموعة الشمسية، المجرة، ثم المجرات والكون ..إلخ.

من يسترسل وراء هذا الوعي سوف يُجن، فالإنسان محبوس في الزمان والمكان ولهذا فمحدودية الوعي نعمة، وكما أنَّ للجسد درجة حرارة لا تزيد ولا تنقص وإلا يمرض، وللبصر مدى وقدرة لا تزيد ولا تنقص، وإلا لرأينا في كل وقت، ما يُنَكِّد علينا حياتنا من المخلوقات الدقيقة والقريبة والبعيدة، ولتعسرت علينا الحياة، وكما أنَّ للسمع أيضا

نطاق ترددات محددة وإلا لسمعنا دبَّة النملة وهَمس الجيران وصراخهم، وسريان المياه في الانابيب والدماء في العروق ولتزاحم على سمعنا ما يسبب الجنون كذلك الوعي يجب أن يلزم نطاقه، ولو زاد أو نقص لتنكدت الحياة.

* * *

هناك من يظن الوعي هو قدرة على الإحاطة بالتفاصيل فينتبه إلى «عدد المصابيح في السقف والنقش على السجاد وألوان الحائط.. إلخ»، ولو فتح هذا الباب لكان الوعي يعني تشتيت وإهدار الانتباه فيما لا ينفع.

لو شاهد الطفل البريء لهبا من النار فسوف يدفعه الفضول لأن يمد أصابعه إليه وسوف يتألم ويبعد بالغريزة يده سريعا عن النار، ولو تكرر المشهد فلن يمد الطفل يده ثانية، لأنَّه وعى أنَّ النار تحرق، وهذا تشبيه بسيط للوعي فالتجربة تُكسب الإنسان خبرة يحتفظ بها في صورة وعي، مُكّنه من تجنب الضرر واختيار النفع.

وفي عالم الكبار يكون الأمر أكثر غرابة وتعقيد، لأنهم يخوضون تجارب ويتلقون خبرات، وبدلا من الاستفادة من هذا الوعي يقع أغلب الناس في نفس الفخ مرة ومرَّات – مثلما يدخل الفأر في المصيدة – لأنَّ هذا الوعي الإنساني يزاحمه مزيج من «العاطفة – المشاعر – الانحيازات – الميول – المخاوف – العقائد الضالة»؛ فيرتبك ويضل.

* * *

من أشهر الكتب العربية، مقدمة «ابن خلدون» التي تدرس في كل العالم، ومازالت تدهش العلماء وتُعتبر مرجعاً في علوم «الاجتماع والفلسفة والاقتصاد والتخطيط العمراني والتاريخ»، ومن الملاحظات المدهشة، أنَّ كتابه المكون من سبعة أجزاء كبيرة «العبر وديوان المُبتدأ والخبر»، لم ينل

شهرة مثل المقدمة، كانت الأجزاء كلها مثل بقية كتب التاريخ التي صدرت في عصره وربما أدنى في القيمة، فلم يطبق ابن خلدون نظريات المقدمة على كتابته للتاريخ وكان تفسير ذلك أنَّه حين قام بتأليف المقدمة، كان لديه قليل جدا من المصادر والوثائق، فاشتغل فكره وتأمله عليها فأنتج المقدمة البديعة، ولكنه حين توفرت بين يديه مصادر كثيرة فيما بعد، كاد أن يقتصر نشاطه على التجميع الآلي.

وبذلك تعلمنا الدرس الهام: «أنَّ الوعي الإنساني يحتاج هضم المعلومة بالتأمل، وأنَّ تراكم وتزاحم المعلومات قد يربك الوعي ويعطله، فيرتبك الإنسان بكثافة المعلومات ويعجز عن هضمها وإعمال ملكة التأمل فيها».

* * *

احتلت إيطاليا «ليبيا»، واحتلت فرنسا «الجزائر»، وقاومت «المغرب» الاستعمار الفرنسي والإسباني، وقُتل الملايين وهُزم «عمر المختار» في ليبيا بعد إقامة سور منع الإمدادات إليه من مصر والمغرب العربي، واستسلم «عبد الكريم الخطابي» بالمغرب، حين استخدم الاستعمار الكيماوي ضد الشعب، وفي الجزائر توالى الشهداء حتى بلغوا أربعة ملايين.

من الملاحظ أن الجهاد الإسلامي كان قويا ومستمرا، ولكنه كان الوسيلة والأداة الوحيدة لمقاومة الإستعمار، استخدم العرب نفس الوسيلة لعشرات السنين ونالوا نفس النتيجة، حتى تغير الحال ورحل الإستعمار بعد الحرب العالمية الثانية من كل البلاد، رحل نتيجة ضعف المستعمر بسبب حروب خارجية، ليحل محله المستعمر الأمريكي الجديد،المستعمر عن بُعد.

في هذه الحروب كان العلم والفكر هو الذي مكن الاستعمار من بلاد العرب، فكان الأمر أشبه بمن يحاول تجفيف قناة تنهمر منها المياه،ويهمل المنبع الذي يمدها بلا نهاية.

لهذا كان الحل هو ابتداع وسائل أخرى للتعرف على ما تميز به العدو من إمكانات وأفكار وأدوات غالبة، فتقوم نخبة من البلاد بالاحتكاك بهم والتعرف على علومهم وأفكارهم وبمرور الأيام يقل الفرق بين الفريقين،مثلما فعلت اليابان.

قهرت الدول الأوربية اليابان، فلم يصر الإمبراطور على المقاومة المسلحة،بل وقع وثيقة الإستسلام ثم أرسل في نفس الوقت، أبناءه إلى أوربا وبقية دول العالم، وترجمت اليابان الكتب العلمية وتدرب أبناؤها على مهارات وعلوم الغرب، وفي عقود قليلة أصبحت اليابان قوة عالمية،احتلت الصين وهزمت روسيا وتحدت أمريكا وأوربا.

ما فعلته اليابان هو الذي أسميه «الوعي»، الذي هو ثمرة التأمل والتدبر،فلو لجأت فقط إلى الحماس القومي أو الديني وظلت تقاتل الأوربيين سنينا لكانت النتيجة فادحة وبلا نهاية مثلما فعل العرب،ولكنها بحثت عما جعل للعالم الغربي اليد الطولى عليهم فتعلمته وتسلحت به.

يعجبني أحد الأفلام الأمريكية، حين قام جندي وسط ساحة القتال بالجلوس ومعه الورقة والقلم يكتب مشاعره وتأمله تحت ضوضاء وهرج المعارك، هذا الجندي يرى مشاهد منظورية لكل اللوحة، ويسجل ما يفوت على المحاربين فالحروب والصراع يتسببا في اندماج الناس في الأحداث جسديا وشعوريا ويكون هذا على حساب الوعي، ولهذا على كل شعب أن يدخر شخصيات مميزة تعزلها عن سخونة الصراع المباشر وتشتغل بالتأمل والنظر من أعلى

على ما يحدث، وبهذا يتكون لديهم وعي يقرر ما هي الخطوة القادمة ومتى نستمر ومتى نتوقف.

وهذا يذكرني بالآية القرآنية: «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» (التوبة –122) وهذه الفرقة التي نفرت للتفقه والإنذار هم النخبة، الذين يدخرون الوعي لصالح الشعوب.

وأخيرا؛ الإحساس بالنعمة يستلزم وعيا، ولكنه يندر في هذا الزمان، هل من يؤلمه ضرسه يستطيع أنْ يشعر بنعمة «العقل واليد واللسان والمال والسلام .. الخ»، لا بد من أن يتوقف الألم أولا، ولكن؛ هل كل الناس تؤلمهم ضروسهم؟، نعم، لكل منا ضرس وضروس، ضرس مغروز ويؤلم، وضرس نتمنى أنْ ينبت ويؤلمنا تأخر إنباته، ضرس في الواقع وضروس في الخيال، عن نفسي، سعيد لأن اللّه منحني نعمة الوصول أخيرا إلى هذا العمر بهذا القدر من الوعي، نعم لحقت بي قطرات الوعي متأخرا، تأخر حتى رحل الشباب وتُلَمْلم الصحة رَحالها وتغادرني متتابعة،ولكن الوعي ابن الحكمة، والوعي عزيز، والوعي لا مشتهى له ولا سوق له.

هل يخطر ببالنا أن ما يملكه الفرد اليوم من أدوات لم يتحصلها «هارون الرشيد»، ولكنها أدوات متناثرة ومتاحة ولكن متاح حولها آلاف الأدوات التي تثير كل الغرائز، وتخدر وتشتت الوعي، وينحرف الجميع إلى أسواق ومهرجانات المتعة وإهدار عصير الحياة، ويبقى سوق الوعي كاسدا.

لا يعنيني كل من يتزاحم هناك، فأنا هنا، مع القليل الذين هم أكثر من في الأرض شعورا بالنعمة، فسوق المتعة هنا... لا هناك .. متعة ممزوجة بالوعي.

عالم المثال

في مباريات كرة القدم تكون المباراة حامية وعنيفة، تتوتر الأعصاب وتتلاحم الأجسام وينفلت السباب، يتبادل اللاعبون الضرب والدفع والعركلة، قد تسيل دماء أو يكسر ضلع،تحتسب الأهداف والتسلل والفاول، ويُلوِّح حَكم المباراة بورقات صفراء وحمراء، وتدور عقارب الوقت وتنتهي المباراة، وتتراجع نفسية الاندماج والتقمص، ثم تنتهي تلك الحمى من الانفعالات والحركات الحامية إلى هدوء ومصافحة بالأيدي واستسلام إلى أنَّ ما حدث قد حدث، وتغمر الروح الرياضية الصدور؛ وتبرد العواطف والغرائز، ويقوم الجميع بتحليل المباراة بلا مشاعر سيئة ولا شعور بالفوت أو الخسارة، لأنها أهداف في شبكة الملعب وليست قذائف في قلب أو صدر فلان، فلم يقتل أحد ولم يخسر أحد أمواله، ولم يَخن أحد ولم يَغدر أحد ولم يُسجن أحد ولم يُحرم أحد ،لأنها..مباراة.

***

في غزوة «أحد»، هُزمت قريش في البداية، بدأ المسلمون في جمع الغنائم،ثم هَبط إليهم الرماة ليشاركوهم،خالفوا الأمر بلزوم مكانهم مهما حدث، ثم قدَّرَ اللّه أنْ احتفظ «خالد بن الوليد» بوعيه وتركيزه حين لمح الجبل بدون الرماة، فارتد بجيشه، فعانى المسلمون هزيمة دامية وصدمة قاسية، فمنذ عام انتصروا على قريش في «بدر»،وقاتلت معهم الملائكة،ورسخ في خاطرهم أنهم أهل الحق والمؤيدون من السماء، ثم يمر عام فيهزمون

ويُقتل منهم ما يزيد عن السبعين، ويصبح هناك شهيد في كل ثلاثة بيوت.

حين نرصد ذكر معركة «أحد» في التراث، نجد أغلب مفردات السيرة «أزمنة وأماكن وشخوص ومواقف وأحاسيس وعواطف»، هذه تعابير وأدوات بشرية، تخص ساكني كوكب الأرض، لا يمكن مقارنتها بالمثال الهابط من السماء،فماذا عن القرآن الكريم!

نقرأ صفحتان كاملتان تعلق على غزة أحد بمثل هذه الآيات: «إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ»، «مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ»، «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» «قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ» (آل عمران /140/152/159/165)

لا ذكر للمعسكر الآخر ولا لوم للمخالفين، انتهت المباراة وحان وقت الدرس، خطاب الحكمة والعلم المطلق يتكلم من أعلى، كلمات غير مغموسة بأي مسحة بشرية، وكأنّها شبه حياة وليست حياة، وكأنَّ الحرب كانت «مباراة» لنتأمل هذه الآية: «وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»(العنكبوت – 64)

***

التصور عن الله يحدد خبرة التدين، يستسهل الواعظ أسلوب الترهيب الزائد والذي يقود إلى اليأس، لو تخيلنا ديكتاتور له مزاج متقلب، ويهوى كرة القدم ويرعى بنفسه الفريق الوطني، يحضر تدريباته ويتدخل في قرارات وفنون اللعبة، ثم يخوض الفريق مباراة دولية، يدرك كل لاعب أنَّه في أي لحظة قد يؤمر بمغادرة الملعب ويستبدل، الاحتمال الأكبر أن يتم تعذيبه أو توبيخه وربما قتله، فمزاج

الديكتاتور وسلطته بلا حدود، في هذه الحالة سوف تكون نفسية اللاعب أثناء المباراة مرتبكة ومشتتة،ويصبح طعم المباراة مريرا في حلوقهم، فيكون اللعب بارتباك مغمور بيأس، وتكون المباراة نكد والخروج منها نكد آخر أكبر.

الحياة هي مباراة كل الناس، وهذا الديكتاتور الذي يُفسد حياة الناس هو ما يملأ أفكارهم وخواطرهم من سوء ظن بالله، فمن حَسن ظنه بالله سيسعد في حياته ويعمل صالحا ويرحل راضيا وسعيدا، ومن يسيء ظنه بالله ويتخيله حاكما مستبدا، سوف يحيا نكدا ويغفل عن أنَّ رحمته وسعت كل شيء.

***

في مشهد الحوار العلوي الذي حضره الملائكة وإبليس حول آدم؛قال إبليس: «لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ» (الحجر – 33)، « فبعزتك لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين» (ص – 82) «أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» (الإسراء –62)، هذا كلام إبليس مع ملك الملوك، فما الذي يجعله يأمن عقاب الله؟ وغضب الله؟ وكيف نفسر الرد الإلهي؛ {قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ}.. (الأعراف – 13)، هل هبط إبليس لأنه «تكبر فيها» أم لأنه «تكبر في حضرة ملك الملوك»؟

لو كان الحوار بشريا بين إنسان وامبراطور، لاعتبرت هذه الجُرأة متحدية لسلطانه وهيبته، ثم يقرر له عقابا وعذابا يتمنى بسببه الموت ولا يناله،ولكن في السماء، عالم المثال، قيم عليا أخرى يجب أن نبذل الجهد لنفهمها فملك

الملوك أعلى من هذه المشاعر والنفسيات البشرية، ولهذا ورد فقط ذكر لجرأة إبليس على المكان، ولم ينطق إبليس إلا وهو ممتلئ بالوعي أنَّه مخلوق أمام «ملك الملوك» الذي كفل الحرية لمخلوقاته،الملائكة تكلمت عما في نفسها بحرية وجاء الرد والحجة من اللّه، إبليس تكلم عما في نفسه من ضعف وكبر وغيرة وشعور بالتنافس مع آدم فطرده وأمهله بعد أن ثرثر بكلمات كثيرة تذم وتتوعد آدم.

لو سب طفلٌ إنساناً بالغاً، سيتعامل معه كطفل في وعيه وجسده، ويرفق به، لا يعاقبه ولا يلومه ولا يهينه، فلا يصدر من الطفل إلا عصير الطفولة.

ما هي المسافة بين المخلوقات والخالق؟، لا شك أنها أكبر بكثير من المسافة بين الرجل البالغ والطفل، ولا شك أن المسافة بين المخلوقات والخالق لا نهائية، ولهذا «فملك الملوك» أعلم بطفولة إبليس والملائكة وكل المخلوقات وأعلم بقدراتهم المحدودة؛ «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ». ربما هذه الآية من أسرار جرأة إبليس، فاللّه أكبر من أن يحرم المخلوقات من الحرية في التعبير عن أفكارها، اللّه أكبر من أن يضطرهم إلى النفاق أو كتمان ما بنفوسهم.

قيم السماء التي تهبط بالوحي إلى الأرض مجردة عن الصبغة البشرية،نحن نصبغها ببشريتنا، ونخطئ في فهم الأسماء الحسنى، فيدخل في روعنا أنَّ اللّه يفرح ويحزن ويغضب بمشاعر البشر، وبهذا وقعنا في خطأ كل الأمم.

هل هي حياة كاملة وحقيقية أم شبه حياة، تتسع وتضيق بحسب إنجاز الإنسان فيها وتحقيق مراد اللّه منه، هل هو امتحان صعب وشاق، أم امتحان الكتاب المفتوح؛ حيث

تتناثر الإجابات من كل جانب، ولكننا لا نمد أيدينا لنتلقفها ما هذه الحياة وما هذا الإنسان؟ ما يدهشني أن المسافة بينه وبين المخلوقات فلكية، رغم أنه له عمر المخلوقات؛ وضعف المخلوقات؛ وغرائز المخلوقات، ويكاد يكون أخا لهم؛ «وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا» (نوح – 17)، يندر من يفكر في هذه الآية، ما هذا الإنسان الذي ثلث حياته نوم هو أخو الموت؟ والثلث الثاني شغل،والثلث الاخير؛ يحار في كيفية قضائه، يقتله الملل فيبحث عن أي وسيلة لهو يسكب ويهدر فيها بقية عمره، كلنا ينزلق من بوابة الرحم إلى الحياة، ثم يخرج حين يتذوق الموت، وحين يُبعث يقول «قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ» (المؤمنون – 113)، ينظر وراءه لعشرات السنين،يجدها تتضام وتتقلص فتعادل يوما أو ساعات في ذاكرته، كلنا يحيا ويموت ولم يمهر الحياة.

الأحمق الذي تراه بجانبك أو في المِرآة، ليس أول أحمق على وجه الأرض، سبقه طابور طويل إلى مصيدة الحمقى، ولم يخطر ببال أغلبهم أنْ يسأل الذي أمامه فيتعلم، ثم يسرع بمغادرة طابور الحمقى إلى طابور الحكمة.

أليس غريبا أنَّ الذي يمهر الحياة واحد من مئات الآلاف وأغلبهم تستهلكه العادة والغريزة، ألا يتشابه هذا مع الحيوانات المنوية التي تملك نوع حياة، تندفع بمئات الملايين ولا يفوز إلا حيوان واحد، هل يخلق اللّه كل هذا الخلق، من أجل أناس هم أندر الناس، يخلقها للممتازين،ألم يبعث اللّه في أمم نبيا وعاد بلا أتباع أو بقليل منهم، لماذا يبعث اللّه نبيا من أجل واحد؟ هل سقط الكل من نظر اللّه ولم يتبق مستأهلا إلا هذا الواحد الممتاز؟

الأمر لن يصل لدرجة نبي لكل مواطن، هل هناك من يفهم هذا ويجعل من نفسه الممتاز في هذا الزمان، الذي لا تبتلعه الدوامة، ولا يُربط بالساقية وهو مغمض العقل فهي حياة واحدة على الأرض، فلا يتنازل عن وعيه وامتيازه.

***

«وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ» (المائدة – 27). شغلت قصة «ابني آدم» صفحة كاملة من القرآن الكريم، «هابيل» لم يمد يده للدفاع عن نفسه، رفض أن يهدم بناء الله المقدس، الإنسان، ورد ذكر «هابيل» في القصة في موضع المدح والمِثال، وورد ذكر «قابيل» في موضع الذم والخسران والندم، هذه القصة جاءت ترجمة لكلمة الملائكة: «قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ»(البقرة – 30) هابيل كان نبيلا،وقابيل كان شهوانيا وأنانيا، من يتمثل بهابيل في الحياة؟، ليس شرطا أن يهم أخاك بقتلك؛ هناك أمثلة أقل من القتل، وكلها اعتداء، كل أمثلة الاعتداء والظلم والقسوة؛ تستتر وراءها كلمة «لأقتلنك»، من قدوته هابيل؛ يلين، يذكر الله والرحم والرحمة، يسامح، يقابل بالحسنى وسليم القلب. لماذا نتمسك فقط بالآيات والآثار التي تبيح رد الصاع بالصاع؟ والتي تدعو للقصاص؟ ونغض الطرف عن مثل تلك القصة القرآنية التي تعرض صورة محمودة من الموقف السلبي تجاه ظلم الإنسان، فهناك بين الحق والباطل فجوة يحتلها العفو والحفاظ على الود والسلام؛ فتسد صدع ما بين الأخوة من مشاحنات، لماذا انتشر بين البشر إسم قابيل واندثر تماما هابيل؟ لقد جربنا سلاسل الثأر ورد العدوان، ولم نجرب الكف والسلم والإصرار على السلام وفقا للخطة القرآنية.

***

مـــن يفلـــح فـــي فهـــم مـــراد اللّه منّـــا، فيكـــون هابيـــل الـــدنيا يحســـن الظـــن بـــاللّه ويـــرحم ويغفـــر ويحـــب ويـــؤثر، ســـوف يكمـــل رحلـــة الحيـــاة فـــي يســـر وهـــدى،وحين يـــأتي وقـــت الرحيـــل ســـوف يخلـــد إلـــى المـــوت كمـــا كـــان يخلـــد إلـــى النـــوم، وهـــذا هـــو ســـعيد الدنيا والآخرة.

الخلافة الإنجليزية

كان عمر ابن الخطاب والصحابة يدركون معنى «الخلافة» «تعاقد بين الحاكم والمحكومين وميثاق غليظ على الطرفين»، مثل عقد الزواج الذي سمَّاه القرآن «مِيثاق غليظ» يفرض التزامات متبادلة على الطرفين، وهذا الفهم هو الذي جعل عمر ابن الخطاب يأمر «المصري القبطي» بضرب «ابن عمرو بن العاص» ليقتص منه. كانت خلافة تحرص على العدل،وليس خلافة تستنزف البلاد والعباد باسمها.

***

في فقه الزواج، يُشترط أن تتزوج المرأة من رجل مسلم، وأنْ يكون بعقد شرعي وشهود وأنْ يُحسن معاملتها، فإنْ نَقَض العقد بأنْ قَصَّرَ في حقوقها أو أضرَّ بها، لها الحق أنْ تفسخ عقد الزواج، أو الخُلع، الذي هو نَقْض العقد لمجرد الزهد في الزوج، أو أنْ تمتلك العِصمة فتتحرر بكلمة منها هذا بعض شُغل الفقهاء في عقد الزواج، شغل متقن ومعقول، نظرا لعدم تدخل السياسة فيه.

هل يجوز أن يكون شرط صحة الزواج، فقط؛ أن يكون الزوج مسلما؟،وأن يُلغى كل ما سبق من شروط الالتزام المتبادل؟، هل يصح أن ينحط الأمر إلى درجة القول: «إن المرأة المسلمة لا يستحل جسدها إلا مسلم؟،بدلا من لا يتزوجها إلا مسلم؟» أو «لا يحق لأحد اغتصاب المرأة المسلمة سوى مسلم؟ ..«هل هذا معقول؟»، رغم أنَّ هذا غير معقول،ففي الفقه الإسلامي وتاريخ المسلمين وحاضرهم ما هو أفدح،فنحن نُزَوِّج الشعوب زواجا أبديا

لحاكم مسلم وفقط، فإنْ كان غير مسلم أصبح محتلا، وذاق منا كل مقاومة وجهاد وتضحيات حتى يرحل، ولكن نسكن ونصمت حين يَغتصب الشعب حاكم مسلم «بالبطاقة أو الوراثة»، رجل مسلم وليس امرأة، لأن لدينا ذكورية مُستغربة، فالذي يَغْتصب هو الرجل، وعيبا أن تَغتصب أمرأه.

نظرنا إلى الذكورة والديانة في البطاقة، ولم ننظر إلى العدل والمعروف وحفظ الأمانة والحرية، رغم أن الآية صريحة:

«وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» (الحديد – 25)

اشتغل أغلب الفقهاء عبر 1300عام ليُسوِّغوا اغتصاب الشعوب، حتى المصطلح مهين.. «حكم المتغلب»، وكما يقول المثل «من يمسك الحصان من رقبته حلال عليه»، هذا الذي قبله الفقه الإسلامي لظروف طارئة،مازال مطبقا وساريا دون مراجعة حتى اليوم.

***

في عهد المماليك كانت تحصينات الإسكندرية قوية ولا يمكن اختراقها،فرضت على الأجانب قيود تجعل التجسس مستحيلا، وظلت هذه الصرامة طوال حكم المماليك إلى أن أصبحت مصر عثمانية.

حينما جاءت الحملة الفرنسية، كان أمام نابليون عدد هائل من المعلومات عن مصر والإسكندرية، بسبب سهولة التجسس عليها، أصبحت مصر كما يقال «سداح مداح»، فما بسطه الجبرتي من أخبار الحملة الفرنسية وتدميرها للإسكندرية، أظهر أنَّ تحصيناتها متخلفة وهشة، فكيف

ينحدر الاهتمام بتحصينات الإسكندرية وحراستها لهذه الدرجة؟

هذا دليل من مئات الأدلة على أنَّ مصر تراجعت كثيرا منذ أصبح المماليك موظفين عند العثمانيين، فقط عليهم جباية الضرائب بالكرباج من المصريين وإرسال «الخراج السنوي» إلى الباب العالي في إسطنبول.

حكم العثمانيون مصر عام 1517، بينما حملة نابليون عام 1898، بينهما ما يقرب من 400 عام، كيف صبر وصمت المصريون لقرون على هذا التدهور؟، كيف لم يخطر ببال «عمر مكرم» وأصحابه، أنْ يتولى بنفسه ولاية مصر، بدلا من هذا الضابط الألباني «محمد علي» الذي كان في الحامية العثمانية؟

***

كيف تتسبب كلمة «الخلافة» التي هي «فكرة مجردة» في تخدير ملايين المصريين لقرون، مع العلم أنَّ ما أنجزه الاستعمار الإنجليزي في مصر، سواء مشروعات سكة حديد وقنوات ري وحياة سياسية، كان مفيدا للطرفين، مقارنة بإهمال العثمانيين لمصر، ومع ذلك لم تتوقف مقاومة المصريين للإنجليز، لأنهم استعمار غير مسلم، بينما لم يخطر بالبال الاستقلال عن العثمانيين، والسر في كلمة «الخلافة»، والخلافة مسؤولية،وبدونها تكون أفدح من الاحتلال، ولا تصبح مُقَدَّسة.

قبل استقلال أمريكا، كانت انجلترا بالنسبة للسكان مثل «الخلافة بالنسبة للمسلمين»، فأغلبهم بروتستانت إنجيليين،وينتمون عِر قا ودينا وعاطفة لإنجلترا.

في القرن السابع والثامن عشر؛ اندلعت حروب في كل أوربا،وتبعا لذلك كانت تندلع حروب في الساحل الأمريكي الشرقي، حيث تتجاور المستعمرات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية، وبعد انتهاء كل حرب في أوربا، تُعقد معاهدات صلح بين المتحاربين، فتجري بينهم مقايضة،كانت إنجلترا تضع المستعمرات الآسيوية في المقدمة، فتتنازل عن مستعمرات في أمريكا لفرنسا، فيقوم المستعمرون التابعين لإنجلترا بالجلاء عنها وهم يتساءلون: «كيف نتركها بعد أن قُتل رجالنا في سبيل السيطرة عليها؟»،ولكنهم مع ذلك يطيعون الأمر وينسحبوا.

***

كانت إنجلترا ترسل جنودا نظاميين لأمريكا، يقاتلون مع السكان ضد الفرنسيين والإسبان والهنود، هذا بالإضافة لإنفاقها الضخم في الحروب بأوروبا، فقامت بفرض بعض الجمارك والضرائب البسيطة على الأمريكان، لم يكن المال هو المشكلة، فالضرائب محتملة ومبررة، ولكن بسبب «الكرامة، الحرية، رفض الإهانة»، طلبوا أن يُمَثَّل 13 نائب (بعدد المستعمرات) في البرلمان الإنجليزي، ولكن لإنجلترا مستعمرات منتشرة في الهند وأسيا ومصر وإفريقيا، لو وافقت لطلب الجميع تمثيلا لهم أيضا، فرفض الإنجليز ورفض الأمريكان الضرائب، وعبَّروا عن ذلك بالشعار

«No taxation without representation»

أي «لا ضرائب بدون تمثيل في البرلمان»، واندلعت حرب الاستقلال الأمريكية،لم ينادي درويش أمريكي فيهم بأنَّهم إنجليز إنجليين مثلنا، ولهم فضل الدفاع عنا،لم يقل أحد:

«لا تتمـــردوا علـــى الخلافـــة الإنجليزيـــة»، وانـــدلعت حـــرب الاستقلال الأمريكية.

فـي هـذه القصـة تخلـت بريطانيـا عـن احترامهـا للأمريكـان فتمردوا عليها بلا تردد لأن لا حياة بدون الكرامة.

***

عنـدما نشـبت حـرب الاسـتقلال الأمريكيـة عـام 1783م عـن بريطانيا،كانـت فرنسـا هـي الـداعم الأكبـر لهـم، كـي تنـتقم مـن عـدوتها بريطانيـا، وتسـبب الـدعم فـي فـراغ الخزانـة الفرنسـية، ممـا أدى إلـى نشـوب الثـورة الفرنسـية بعـدها بسنوات قليلة عام 1789م.

تمـر سـنوات قليلـة وتنشـب حـرب أخـرى بـين فرنسـا وبريطانيا،فتطلـب فرنسـا مـن الأمـريكيين الوقـوف بجانبها،وتـذكّرهم بأنّهـا دعمـتهم بكـل قوتهـا ليسـتقلوا،ولم يرضـخ الأمريكـان للابتـزاز العـاطفي، فـالحرب ليسـت لمصـلحتهم، فرفضـوا التـورط وأصـروا علـى الحياد،غضـبت فرنسـا وشـنت حمـلات قرصـنة علـى السـفن الأمريكيـة، فاضـطرت أمريكـا للتحـالف مـع بريطانيـا ضـد فرنسا،وأصـبحت السـفن الفرنسـية تعـاني مـن ضـربات البريطـانيين والأمريكـان معـا، إلـى أن جـاء «نـابليون» وعقـد معاهدة صلح مع الأمريكان لتتوقف القرصنة المتبادلة.

فـي هـذه القصـة طلبـت فرنسـا رد الجميـل ولكـن كـان ذلـك ضـد مصـلحة أمريكـا، فـرفض الأمريكيـون الطلـب، لأنهـم يـدركون أهميـة الاسـتقلال بـدون أي تبعيـة، فالعاطفـة قـد تُحمد في الأفراد ولكن ليس في السياسة.

عندما أقرأ تاريخ استقلال أمريكا، لا أستطيع منع فكري من القفز إلى تاريخنا الساكن في مواجهة التاريخ الأوروبي والأمريكي الذي يتفوق على أفلام الحركة والإثارة، ويقفز إلى خيالي مصطلح (مالك بن نبي) القابلية للاستعمار، والذي هبط بواسطة (علي شريعتي) ليصبح القابلية للاستحمار.

***

لو تأملت عيوب العقلية والنفسية العربية، سأقول إن أكبرها «الاختزال الظالم»، هل يعقل أن يكون حائط كله أبيض وعليه بقعة صغيرة سوداء،وأقول أنه أسود وبه بقعة بيضاء؟، للأسف هذه خلاصة العقلية والنفسية والعاطفة والمنطق العربي، لا يفلت من هذا السحر الأمي ولا المتعلم ولا حامل الدكتوراه.

الزعيم فلان:

«يَقتل بالكيماوي مئات الآلاف ويُدخل البلاد في حروب تقتل مئات الآلاف، وحين تنتهي حياته بطريقة مشَرِّفة على يد أعدائه، يصبح قديسا وشهيدا ومثالا، ونتمنى تكرار عصره».

القائد فلان:

«يُهزم في كل الحروب التي ورط الأمة فيها لقرن قادم،وتضيع القدس،ثم تُذكر له خطبة شتم بها الأمريكان أو قرار كان لصالح الناس، ويصبح زعيم الإنسانية والوطنية،ونصير الفقراء وحبيب الملايين».

الخلافة «الأموية والعباسية والفاطمية والعثمانية» طالما اسمها خلافة فهي مقدسة وممدوحة سواء كانت راشدة أو ملك عضوض، وسواء ظلمت الناس أو قهرتهم أو

جهلتهم أو أوقفت نموهم، فيكفي أنها خلافة والخلافة دين وبهذا فهي مغفور لها أي تقصير أو ظلم.

«عقليتنا تأكل البالوظة وتنتشي وتنسى كل شيء،وصافي يا لبن حليب يا قشطة»

***

أي شيء في الدنيا لا يحقق خير وكرامة الناس يعتبر باطل،تعرفونهم بثمارهم، الدين الذي ثمرته شديدة المرارة، لا بد أنه اختلط به باطل،الدين الحق، يثمر أخلاقا ورحمة وتعايش ونهضة وسلام، وإلا فلنبحث عن السبب، أما أن نقول مقدس وتلهبنا نيرانه وتبتلينا سهامه، فهذه دروشة وعجز رأي وسذاجة.

كما قال مارك توين» :من ليس له خبرة إلا بالمطرقة يتعامل مع كل شيء كأنه مسمار. الدولة العثمانية كانت حربية صوفية بامتياز، لا تعرف سوى القتال تحت شعار الجهاد،ولهذا فلها مميزات وعيوب، ومهما عظمت المميزات والعيوب، فلا مساومة أو تهاون على كرامة الناس وحقوقهم سواء كان الحاكم خليفة أم استعمارا أجنبيا أم مواطنا مسلما.

ثقافة الحوار

في مقدمة كتاب «كابوس مكيف الهواء»، بعد أن أدرك الكاتب الأمريكي «هنري ميلر»، أنَّ صوته الداعي للسلام ضعيف، بينما الأصوات الحماسية التي سبقت الحرب العالمية الثانية تملأ الدنيا صخبا، قال:

«لكي يعرف الإنسان السلام يجب أن يُجرب الصراع، وعليه أن يمر بالمرحلة البطولية قبل أن يتمكن من التصرف كحكيم، يجب أن يصبح ضحية انفعالاته قبل أن يتمكن من التعالي عليها»

في هذه المقدمة تقرير لواقع متكرر، أنَّ الإنسان يستطيع أن يوفر على نفسه الصراع والدماء والمشاعر السيئة والسنوات الضائعة، لو خضع للحوار،ولكنه دائما لا يفعل إلا بعد أن يندم ويدفع أثمانا فادحة، لا يمكن تعويضها.

***

من يدرس التاريخ يدرك أنَّ ضحايا الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت عشرات الملايين من البشر، حتى كاد الإنسان الأوربي أن ينقرض،فهناك شعوب فقدت ثلثي السكان وأخرى فقدت نصفهم، وفي النهاية توصلوا إلى أنَّ الحوار هو الحل، فتحاوروا متأخرا وتوصلوا لأدوات ووسائل ينتشر بها ثقافة التسامح والمواطنة.

من القصص الطريفة والمفيدة التي قرأتها: «قام أحد الأدباء الظرفاء الأوربيون.

بنشر نقد لأحد اللوردات من ذوي النفوذ، فما كان من اللورد إلا أنْ ذهب إليه غاضبا».

قال اللورد: «لقد أهنتني ولا بد من مبارزتك، فاختر السلاح».

في هدوء قال الأديب: «لا بأس، أبارزك بنفس السلاح الذي تظن أنني أهنتك به، الكلمة».

ابتسم اللورد لهذه الإجابة وتم الصلح.

***

النقد يقابله نقد، الكلمة تقابلها كلمة، لكن الكلمة التي يقابلها مسدس، لا تسمى حوارا بل قهرا وجهلا وتخلفا ويخسر الجميع.

***

كان «برنارد شو» يساريا، وله صديق أستاذ جامعي يَميني،وكان «برنارد شو» يحبه كثيرا؛ ويحب الحوار الذي يدور بينهما نظرا لتعارضهما الفكري،كان الحوار مصدر الاستمتاع المفضل عند «برنارد شو»، في يوم اضطر الأستاذ اليميني للاقتراض من «برنارد شو»، الذي كان نباتيا وزاهدا في حياته ولباسه، لهذا كان لديه مال، بعد اقتراض المبلغ،تغير حال الصديق، كلما تجادل في موضوع مع «برنارد شو»، وافقه في كل آرائه، يقول: «أصبت... أتفق معك... الرأي كما قلت»، أدرك «برنارد شو» أنّ السبب في التغير هو خشيته أن يغضبه، فيطالبه برد المال، فصرخ «برنارد شو» في وجهه قائلا: «حاورني وإلا أعطني مالي»

،الإنسان في كلامه بين ثلاثة أنشطة، «طلب، أمر، حوار» الطلب، من الأدنى للأعلى، مثل طلب الطفل من أبيه .الأمر من الأعلى للأدنى، مثل الرئيس للمرؤوس.

كل من «الطلب والأمر» لا يشغل سوى كلمات يسيرة وقليلة، أما الحوار فهو غالب كلام الناس، يجب أن يكون بين متساويين كأسنان المشط، فلو بدأ الحوار طبقيا أو سلطويا لفشل، وأصبح نفاقا وإذعانا،فعندما يحاور رئيس الشركة العمال، لا بد أن يتساوى معهم،وإلا فشل الحوار وانعكس أثره، كذلك الحوار بين السلطة والفرد،بين الأب والابن، بين الإنسان والإنسان.

***

لا يروقني برنامج «الاتجاه المعاكس» وأشباهه من البرامج لأنها برامج عصبية تمارس السِجال وليس الحوار، ففي السجال كل منهم يعرض بضاعته، أيدولوجيته، طائفته عصبيته، في السجال يتحدث الأول حديثا يبثه في الهواء وعندما ينتهي يتحدث الآخر، فلا علاقة بين ما يقوله الأول وما يقوله الثاني، يكون الحال أشبه بالبائع الذي ينادي في السوق: «قرب تعالى عندي واشتري حبوب لفك السحر وجلب الحبيب وإنجاب الذكور وطرد الشياطين».

ليست المشكلة فيما يتناثر من مشاحنات وربما لكمات واتهامات مع التخوين أثناء السجال، المشكلة أنَّ السجال يقوم بغسل دماغ وأعصاب الجمهور، فيتبرمج كل منَّا على هذه الطريقة العصبية الصمَّاء في الحوار،حوار الطرشان فيتحاور العوام والساسة والرياضيون والفنانون ومن يظنون أنفسهم نخبة بنفس الطريقة.

في كتاب «محمد سلماوي» وعنوانه «يوما أو بعض يوم» راقتني تلك الفقرة:

«أما الشيء الذي كان يستهويني حقا في المدرسة فكان المناظرة، فقد كان من عادة المدرسين أن يقيموا مناظرة عامة للطلبة في المدرج الكبير،يحددون موضوعها ويختارون من بين الطلبة من سيدافع عن الموضوع المطروح ومن سيعارضه، وكنت أتابع تلك المناظرات بشغف شديد، على الرغم من أنني لم اشارك فيها قط، لكنها علمتني ثقافة الحوار،وكيف يدافع المرء عن وجهة نظره بالحجة وبالمنطق من دون أن يجرح من يعارضه، وعلمتني كيف أستمع لوجهة النظر الأخرى باحترام وبلا غضب ولا تعصب».

يتحدث عن «فيكتوريا كوليدج بالمعادي».. تلك المدارس العريقة التي كان لها فرع بالإسكندرية ودرس فيها «الملك حسين وفيصل العراق وعدنان خاشقجي وعمر الشريف ويوسف شاهين وعثمان أحمد عثمان».

ينصبون بالمدرسة مائدتين للحوار مثلما تفعل «قناة الجزيرة» ولكن، يُجرون حوارا لا سِجالا، ويجلس كل تلاميذ المدرسة يستمعون للطلبة المتدربين على الحوار، يتعلمون الإنصات وأدب الاختلاف والتنوع والتفكير والتحليل والإذعان للمنطق.

عرفت من هذه الفقرة لماذا نخرج من نقاشاتنا بدماء وأحقاد ومشاعر إهانة، وحنق وغضب ثم فِرقة، لأننا نتساجل ولا نتحاور، نحن نتساجل بنفسية الأهلي والزمالك، نحن عصبيون وحاقدون وغاضبون وشاعرون بالغُبن والظلم لأننا نتساجل، فدعوة للحوار.

يشتكي الأب للطبيب النفسي، يقول» : «لا أستطيع أن أفهم ابني، فهو لا يريد الاستماع إلي أبدا»، يرد الطبيب: «دعني أرتب ما قلته للتو، أنت لا تفهم ابنك، لأنه لا يريد الاستماع إليك، أعتقد أنك كي تفهم شخصا آخر، فأنت بحاجة لأن تستمع له ويستمع لك، تتحاورا معا».

ومن الكلمات الشهيرة لعلماء النفس بشأن الطفل: «لتكن القاعدة هي.الحوار بلا نهاية»

***

حضر أحد المفكرين المسلمين مناظرة «أحمد ديدات» وكان معه باحث أمريكي، فسأله عن رأيه، فقال: «نعم هو هزم الآخر في المناقشة، قام بتسفيه ما عنده، لكن هزيمة الخصم لا تجلبه إليك، فكيف تكسبه وأنت تستعلي عليه، لا يكفي أن ما معك حق، الذي يهم الآخر؛ (هل جعلك هذا الحق متواضعا وودودا أم ستستخدمه لإهانته وكشفه على الملأ)

كان يكفيه أن يعرض للناس ما عنده من الجيد ومدى محبته وسلميته ونيته للخير، ثم يدعه يقارنه بما عنده، أما أن تقول له: «عقيدتك متخلفة أو قبيحة»، فلا تتوقع نتائج إيجابية.

هذه الفكرة جعلتني أنتبه للفرق بين الحوار والمناظرة فالحوار لا ينتهي ولا يجرح، وشراسة وفشل الحوارات تعود إلى أننا نظن أنّ العقول تتحدث،ولكنها النفوس المحشوة بكل المشاعر السَيِّئَة!

لماذا يضل حوارنا؟ .. يجب أن يكون الحوار حول فكرة واحدة، فكرة توضع تحت المجهر أو تحت المشرط، والحذر كل الحذر أن يتفرع أو ينزلق الحوار إلى فكرة أخرى، «فرعية أو مغايرة»، لأنه في هذه الحالة سوف يتحول الحوار إلى «لعبة القفز»، نقفز من فكرة إلى فكرة، ويكون الحوار مثل بيت جحا، مسالك ومنحنيات ومزالق بلا خريطة، والنتيجة أن نشعر بـ:

١ -ضيق الصدر وغليانه.

٢ -تيه وغربة لغة التفاهم.

٣ -هروب وضلال المشتركات.

٤ -تناثر الاتهامات والظنون التخوينية أو التضليلية.

ويصبح حوار الطرشان العاجز أو الضرائر الحاقد، والسبب هو عدم النجاح في التمسك بنقطة الحوار الأولى حتى تنتهي.

لنفترض أن النقطة الأم لا تُبحث سوى بنقطة فرعية نتطرق إليها، هنا لا بد من استحضار الوعي بأنه هناك انتقال ضروري قد حدث، فنشرع في النقطة الفرعية ونحن ندرك أنه مجرد انحناء. سيتلوه عودة لنقطة الأصل.

***

اختبار الفكرة مثل المادة، فعندما تُختبر مادة من حيث «تماسكها أو صفائها أو تحملها للحرارة الخ»، توضع على مائدة الاختبار، لو كان المختبرون عدة أشخاص، الأول يمسك بسكين والثاني بلهب والثالث يمسك بمادة كيميائية تفاعلية، كل طرف لا بد أن يوجّه الأداة التي معه للمادة

موضوع الاختبار، لا يوجه أحدهم السكين أو اللهب أو المادة الكيميائية الكاوية لزميله، هذا التصرف خطير اللحظة التي يفقد أحدهم التمييز بين المادة المختبرة وبين شريكه في الاختبار؛ خطيرة جدا.

للأسف هذا ما يحدث في حواراتنا، فالفكرة هي التي يجب أن تخضع للاختبار بكل الأدوات، يجب أن لا نعاملها بقدسية فطالما دخلت الفكرة الحوار فلا قدسية، المشركون جادلوا النبي ﷺ في «وجود اللّه والرسالة والرسول» وسجّل القرآن كل الأقوال، بل ونتعبد بتلاوة حججهم في صلاتنا، وفي صلح الحديبية وافق النبي ﷺ على محو كلمة "رسول اللّه" من المعاهدة.

بينما نحن ننحرف من الفكرة إلى المتحاور لنطعنه، أو نغلق الباب على إصبعه دون مقدمات .أو نقتله معنويا، بتكفيره أو اتهامه بالتعصب أو الغباء أو الخيانة أو أي صفة اختزال هذا بالضبط ضرب تحت الحزام وإرهاب وغلق لأي فرصة للحوار والتواصل.

***

خضع الشباب سنوات طويلة للدعاة الدينيين على القنوات الفضائية،وانفعلوا بهم وأطاعوهم، ولكن حين جاءت لحظة حاسمة في تاريخ الشعوب، حيث لا بد من الحوار، وكما كانوا يتصدرون وحدهم الميكروفونات والشاشات، كان عليهم أن يشاركوا كل التيارات في الحوار بشأن المرحلة الحالية، ولكن لم نسمع لأحدهم صوتا، واختفى الجميع،وحين تساءل الناس عن ذلك، أدركنا أن هؤلاء الدعاة ماهرون في نشاط يسري في اتجاه واحد، وهو الوعظ، أي يتكلمون ويثيرون المشاعر والعواطف وينفعل

الشباب، لم يمارسوا الحوار، والحوار يحتاج علما وثقافة عميقة وممارسة، وهذا يندر فيهم، ولهذا اختفوا تماما عن ساحات الحوار وصمتوا، وآثروا السلامة.

***

الشركات الصناعية الكبرى لا تتوقف عن عملية التحسين فهناك دائما مطاردة للجودة، وبهذه الطريقة تطورت المخترعات من الصورة الأولى الساذجة إلى ما هي عليه اليوم وما ستكون عليه غدا، ولو توقفت شركة عن هذه العملية لسبقتها الشركات الأخرى، وبالبحث البسيط في جوجل نستطيع رؤية الكمبيوتر «كمثال» في أول اختراعه حيث كان يحتل غرفة كبيرة، ويقوم بوظائف قليلة ومحدودة، ثم تطور إلى أن يصبح في يد الإنسان بإمكانات هائلة، ولا يزال التطوير قائم.

الإنسان هو الأولى بالاهتمام في هذه الدنيا، فهو بناء الله وهو خليفته في الأرض، وقد كان في بداية حياته على الأرض يبتدع تحسينات تفرضها ضروريات الوجود، ولكن حين تمكن الإنسان من بناء البيت وتدبير الآلات التي تحفظ حياته، أصبح التطور في حياته بطيئا جدا، ولو كان التحسين يلقى نفس الأهمية التي تنالها المخترعات والآلات لكان إنسان اليوم أسعد .ولا توجد وسيلة للتحسين أفضل من الحوار البناء،باستعراض الواقع ونقده ثم الخروج بما يقلل من العيوب ويزيد في المميزات، ولكن ما يعرقل ويفسد ويمنع الحوار هو ما وراء النفوس التي تتحاور فالانحياز والمصلحة والمشاعر السيئة تفسد كل حوار وتطرد أي منطق، وهذا هو سر ما فينا من شقاق وتخلف.

الولد الشقي

يراقب الولد الشقي جماعة من النمل وهي تتعاون لنقل دودة كبيرة إلى مخبأها، يتركها تجهد نفسها وتتحايل حتى تصل بالغنيمة إلى الحفرة، وبمجرد دخولها فيها بجزء من الدودة واطمئنانها لقرب تمام المهمة؛ يبسط الولد الشقي قدمه فيضعها على مدخل الحفرة فتتصدع وتتهدم، ويُسرع النمل في هَرَج لسحب القتلى والمصابين من تحت الأنقاض، بعدها -وبصبر عظيم- يعاود النمل فتح المدخل الذي تَهدَّم، أثناء ذلك يقوم الولد الشقي بسحب الدودة بسهولة بعيدا حيث موضعها الأول، فيشرع النمل من جديد لنقل الدودة إلى الحفرة، ودوخيني يا ليمونة.

لو ظل هذا الولد يُفسد ما ينجزه النمل آلاف المرات لما قام النمل بتعديل ردود أفعاله، ذلك لأنه يتحرك غريزيا فلا يملك سوى الصبر والجهد الشاق، أما موهبة النظر والاعتبار فتلك وهبها الله الإنسان، ولو امتلك النمل هذه الموهبة الإنسانية أيضا لما تغير الوضع طالما أنه لا يرى الولد الشقي لن يتغير الوضع إلا إذا تخيلنا أنَّ نملة واحدة من شعب النمل نظرت لأعلى فرأت الولد الشقي، وأدركت أنَّ النمل سيدخل معه في دائرة مغلقة يُستنزف فيها بغير ثمرة عندها ستنصح بقية النمل بالكف عن بذل الجهد في نقل هذه الدودة والبحث عن دودة أخرى بعيدة عن عيني الولد الشقي.

نملة واحدة تنظر لأعلى توفر جهد شعب كامل من النمل ولكن النمل لا ينظر لأعلى، بينما نحن نستطيع، فلماذا لا نفعل!

الشعب المصري كله لا يفرق كثيرا عن النمل، مثل من شاهد طابورا فأسرع بالاصطفاف فيه، الكل مصمم على الوقوف في الطابور، الغريب أن المعلومة وصلت إلى الجميع «هذا الطابور يمنح يانصيب لأهل الحظوظ فقط »، ومع ذلك الكل واقف ومتمسك بدوره في الطابور ويأمل في حظ نادر لا يخطر ببال أحد المغادرة إلى طابور آخر أو ابتداع طابور جديد، للأسف طوابير المصريين طِب وهندسة فقط، لا يخطر ببال أحد أن يقول بحرية: «لن أدخل يانصيب التعليم والشهادة كمؤهل للزواج، ولن أفرط في حياتي الوحيدة التي منحها اللّه لي»، ولا حل إلا أن تنادي عليهم نخبة حكيمة من بعيد وقريب ، تقترح طوابير أخرى ومسارات مختلفة، فما نحن فيه من تيه يرجع لغياب النخبة، ولهذا وقع الجميع ضحية للولد الشقي مثلما يقع النمل.

* * *

يُعتبر المؤرخ البريطاني (أرنولد جوزف توينبي) من أشهر المؤرخين في القرن العشرين، ويذكر في نظريّته الشهيرة الخاصّة بـ "التحدّي والاستجابة: «الارتقاء الحضاري لا يحدث بالغزو واستغلال الشعوب، ولا بالتقدم التكنولوجي، ولكن بعملية التسامي التي تقودها نخبة نادرة من العباقرة المبدعة، التي تمثل عقل وبصر وضمير المجتمع، لهم أفكار شجاعة وحكيمة مغايرة ، تختلف عن الفكر السائد فتقلدهم الأكثرية وتحاكيهم» هذه النخبة هي النملة التي نظرت إلى أعلى فرأت ما يفعل الولد الشقي ، حين تختفي النخبة يبدأ الانحلال الحضاري ويدب العجز ويتشتت المجتمع وتسيطر عليه أقلية سلطوية أو طائفية تدخله في متاهات مُرهقة ومحبطة لكل ثمرة.

وأفراد النخبة لديهم رؤية منظورية وليست جزئية، وهم بذلك أشبة بمن يتنبأ بالمناخ، حيث يبسط خريطة العالم

فيشير إلى مرتفعات ومنخفضات ورياح وسحب تتجمع في أماكن متفرقة وبعيدة، ثم نراها تترجم إلى أمطار تتساقط على أماكن أخرى، هكذا يتم التنبؤ بالبرودة والحرارة والرياح وبقية مفردات المناخ.

كذلك تقوم النخبة بجمع المعلومات التاريخية والجغرافية والسياسية والعلمية والإحصائية والفكرية.. إلخ، ومنها تخلص للفكرة التي يلتقطها المجتمع باردة وناضجة.

***

قال أحد الحكماء يصف دور النخبة المثقفة:

«هي التي تمتلك وعيا ثريا فترى به الآخرين مزودين بأجنحة وقدرات خارقة، بينما يرى فقراء الوعي أنفسهم مُقيدين مُسَلسلين مَقهورين معدومي الحيلة وضحايا»

***

هل سمعتم عن مالك أسطول طائرات من طراز "بوينج" الحديث،يستخدمها كسيارة تنقل الركاب على عجلاتها من القرية إلى المدينة الواقعة على بعد عشرة كيلو مترات ذهابا وإيابا!، هذا الخبر سوف يدهش الناس ويثير استنكارهم، ولكنه من حيث الوظيفة منطقي لا عيب فيه فالطائرة العملاقة بالفعل تمتلك القدرة على السير مثل السيارة،ولكن المنطق يقول أنَّ الأولى شراء سيارة بثمن زهيد لتقوم بتلك المهمة، ويقول المنطق أيضا؛ إن الطائرة أهينت باستخدامها مكان السيارة، من يرصد تاريخ الشعوب يجد أنها كثيرا ما تهدر طاقتها بهذه الطريقة دون أن تشعر بفداحة ما تهدر من طاقة وما تتكلف من خسارة، ولا يرتكب شعب مثل هذا الخطأ الباهظ إلا حين يفقد نخبته.

***

عقب الثورة الفرنسية، قامت أوربا مجتمعة بسلسلة حروب ضد فرنسا،وكان نابليون يحرص على محاربة الأعداء فُرادى فلا يحارب أكثر من جبهة في نفس الوقت، لذلك اتفقت الإمبراطورية النمساوية وروسيا على محاربة نابليون في وقت ومكان واحد، وكان التقويم الروسي "اليوليانى" الأورثوذوكسي يختلف عن التقويم الأوروبي الكاثوليكي فكان الفارق عشرة أيام أو أكثر، فجاء الجيش النمساوي مبكرا فانفرد به نابليون وهزمه، ثم جاء الروس متأخرين فانتصر نابليون أيضا وهو الذي كان أقل منهما في كل شيء.

هنا انتصر نابليون بسبب غياب معلومة اختلاف التقويم بين روسيا والنمسا، فضحك التاريخ كما هي عادته.. لو تخيلنا وجود عالِم «نخبوي» ينبه النمساويين والروس في تلك اللحظة إلى هذه المعلومة، ألم يكن ذلك ليغير تاريخ أوروبا وربما العالم؟

الصعود إلى أسفل

أتذكر حين كنت صبيا، زرت المقابر مع جيراني، وقفنا عند مقبرة عائلة صديقي، ومعنا الجد الأكبر الذي كان مدرسا لمادة الزراعة، كان للمقبرة باب مفتوح وعلى يمينه خلف السور شجرتان، أحدهما مورقة وسميكة ومنتصبة، بينما الأخرى بلا أوراق ونحيفة ومائلة، سألنا الجد: "هل تعلمون أنني زرعت الشجرتان في نفس الوقت!، من يعرف سبب هذا التفاوت بينهما؟ ولما لم نستطع الإجابة قال: "الشجرتان رغم أنهما متجاورتان خلف سور المقبرة من الداخل؛ إلا أنَّ الأولى كانت أقرب إلى المدخل، يصلها من الشمس نصيب كاف يمنحها الصحة والقوة والنمو، والشجرة الأخرى لم تصل الشمس إليها؛ فأمْرَضها وأضعفها الظل.

* * *

زار "أنيس منصور" غابات كيرالا الكثيفة الأشجار في جنوب الهند،ورأى أشجارا مُعمّرة لعشرات السنين وشديدة الضخامة، ولاحظ أنَّ بعض الجذوع الضخمة تتلوى وتنحني لأسفل ثم تعود وترتفع مستقيمة،وأخرى تميل لأسفل حتى تلامس الأرض ثم تنحني لتنهض مستقيمة وكأنها تستدرك ما فاتها وتتجه لأعلى.

تحير "أنيس منصور" من هذه الظاهرة المدهشة، وبعد تأمل اهتدى إلى أنَّ هذه الأشجار ما كان ينبغي لها أن تكون كذلك، فالطبيعي أنَّ نمو الأشجار عموديا لأعلى، أي متوازنة مع جاذبية الأرض ومعاكسة لها، في نفس الوقت يجب أن تتسابق في الصعود تجاه الشمس، ولكن هذه الأشجار حاولت وهي صغيرة أن تفعل ذلك وتنساق لقوانين الطبيعة،فاعترضتها أشجار أخرى متشابكة ومنعتها من

الصعود، فانحرفت الفروع وحاولت أن تجد مخرجا من هذا الضيق وانثنت، ومضت سنون وهي تحاول ولا تقدر إلا الانحناء للأسفل، وبمرور الزمن وزوال الموانع،وجدت غريزتها الفرصة فاعتدلت واتجهت للأعلى في مسارها الطبيعي. ولكن الذي يرى الأشجار بصورتها هذه يقول: "مريضة ومنحرفة"، وحين يعود إلى تاريخها يجد لها العذر، لقد أرغمت على الالتواء والانحراف، لأنَّ في تاريخها مُقدمات وأسباب انحرافها.

وقصة شجر الغابة تتشابه مع تاريخ الإنسان؛ فعلينا حين نجد انحرافا في الفرد أو المجتمع، أن نبحث عن تاريخ وجذور هذا الانحراف، نفتش عن سببه الخفي، ونضعه في مكانه من تسلسل الأحداث.

تذكرت خيباتنا المتتالية وتخيلت كل أفراد الشعب أشجارا هندية،وتساءلت؛ متى نستقيم للأعلى؟ ما الذي حُرمنا منه وبماذا ضُيق علينا وكيف قُهرنا؟

هل السلطة؟ هل المجتمع؟ هل أفكارنا؟ هل الأنا؟

هل هناك أمل في الشعوب أو الأفراد الذين انحرفوا لأسفل سنينا أن يرتفعوا ويسموا حين يجدون فرجة ضوء أو أمل ينفذون منها للانطلاق لأعلى بدلا من الانحطاط.. أم تتخشب سيقان ارادتهم وضميرهم وعاداتهم فلا يستجيبوا للضوء والنور بسبب هذا التيبس؟

الهدف بالنسبة للشباب أشبه بالشمس للنبات، بدون الهدف يجلس على المقهى ويفعل مثل كل الناس، يقف الجميع طوابير متكدسين وراء لا شيء، أو وراء أشياء قليلة القيمة، كل أهداف الغريزة تهبط بالإنسان وتجعل نفسيته وشخصيته وسعادته هزيلة وهشة، بينما الأهداف الكبرى الجمعية تؤثر في الإنسان والمحيط .

الحياة بلا أشواك

حين أتساءل عن أفضل أيامي، أجدها عندما حدث انحناء حاد في حياتي، أجبرني على السفر للخارج والعيش سنوات وحيدا، هناك وجدت نفسي، ونَما إيماني وفكري، وسَلم قلبي، ولا أنسى المحنة التي سبقت هذا السفر، حين بلغ الشعور بالظلم أنني لم أفلح في الإمساك بكوب المشروب الساخن دون أن يهتز وتتساقط قطراته الداكنة على ملابسي، بينما مرتكب جريمة القسوة والظلم يراني فيحول عينيه عني بينما قلبه يرقص فرحا خبيثا وشريرا، ولكني تعلمت فيما بعد، أنّهّ عندما يتعاون أعداؤك على ظلمك وقهرك، فترحل مهزوما، لا بد أنَّ اللّه تعالى شاء هذا القدر،الذي أطلق من حقدهم وقسوتهم الطاقةَ التي تقذفك سالما إلى برِّ الأمان، فتجد نفسك التي تاهت منك طوال حياتك، وفي نهاية الرحلة لا تملك إلا أن تشكرهم على حقدهم وإيذائهم وتعمدهم قهرك، فلولا تلك القوة الشريرة ما كان يخطر ببالك هذا الانتقال الذي كان من المستحيل أن تلين نفسك فتتقبله.

هذا درسُ الحياة التي لا تثمر فيها الزهور بلا أشواك، ولوحة الحياة لا ترسم بلون واحد، لا بد من تفاعل اللونين، الخير والشر.

وصف اللّه تعالى قصة يوسف عليه السلام «أحسن القصص»، ماذا لو نُزعت أشواك القصة واقتصرت على عَيْشهِ هانئا في بيت يعقوب، وحين يُرسِل اللّه الرؤيا إلى الملك، يفسرها له يوسف فيولّيه المَلِك وزيرا له.

في هذا السيناريو يُعفَىَ يوسف من أشواك الحياة الحادة والمؤلمة التي تمثلت في (خيانة وغدر إخوته – ظلام البئر– البيع في سوق العبيد – فتنة امرأه العزيز– السجن الطويل).

وهذا الخيال أشبه بسؤال آخر ساذج: «لماذا لم يخلقنا اللّه ملائكة وتتجسد المدينة الفاضلة على الأرض؟»

الرحلة التي قطعها يوسف من بدايتها إلى نهايتها هي التي أنتجت يوسف الصديق، فخياراته الصالحة المتتالية هي السلالم التي صعد عليها إلى ثمرة الحكمة وعِلم التأويل وجعلته محلا صالحا لوحي اللّه.

الرحلة التي يقطعها الإنسان في الأرض سلسلة خيارات قد تنتج الإنسان الصالح أو الفاسد، فالخلل ليس في الرحلة وأشواكها ولكن في صلاح الخيارات ضلالها.

الفشل خيار. الإيمان خيار. الكفر خيار. السعادة خيار.

حياة الإنسان ماكينة «محايدة»، تنفعل بسلسلة خياراته المتتالية، فالمشرط الذي يزهق الحياة هو الذي يزيل الورم لينقذ الحياة، والخيارات مثل منعطفات الطرق التي تنتج سيناريوهات بلا عدد، هناك خيارات الخير وخيارات الشر وللخيارات نتائج مختلفة تصب في قلب ووعي الإنسان في رحلة نضجه.

***

في أحد المصانع كان هناك بعض العمال الذين يقومون بتصرفات فيها خسارة للمصنع، ولا يلتزمون بقوانينه وصاحب المصنع يرى هذا ولا يتدخل ولا يُبْدي عدم رضاه ينظر لمن يجتهد ولمن يكسل ولمن يُخَرِّب بنفس النظرة المحايدة، عندما هم أحد العمال الغيورون بمحاولة وقف

العامل المفسد والتصدي له، قال له عامل قديم وخبير في المصنع: «طالما صاحب المصنع قادر على إيقافه أو طرده ومع ذلك لا يفعل، فلا بد أنَّ هنالك هدفا وخطة وحكمة.

سوف أتخيل أول نزول الوحي على الرسول محمد ﷺ يقال له:

"انطلق إلى يثرب، ستجد الأوس والخزرج يقتتلان منذ سنين، حتى كادوا أن يُبادوا، أشعل اليهود بينهم الحروب، وأخبروهم أنَّه يوشك أنْ يَبعث الله نبي، ولو رأوك سوف يصدقوك وينصروك"

وبدلا من أن يمكث الرسول ثلاث عشرة سنة بمكة يعاني من كفار قريش ومقاطعتهم وإيذاءهم، ينتقل إلى يثرب فيصدقوه وينتشر الإسلام.

بهذا السيناريو البسيط قد شطبنا من القرآن السور والآيات المكية،وتصبح سيرة الإسلام مثل السكين في الزبدة، سيرة بلا أشواك،بلا أبي لهب ولا أبي جهل ولن يُحكى عن عذاب بلال وقوله: «أحد أحد».

ومن الممكن افتراض سيناريو أخر، أنْ يقال له:

«اذهب إلى امبراطور روما، حيث الحضارة والقوة والدين المسيحي الذي ينتظر نبيا يُبعث، وسوف يصدقوك وينصروك»، ثم يبدأ الإسلام قويا برعاية إمبراطور قوي وأمة متدينة ، ولكن الذي حدث في الواقع، ما نعلمه جميعا، أنَّ الفترة المكية استغرقت ثلاثة عشر عاما، عناد وإيذاء ومقاطعة وتعذيب وعَنَت، وفي ظل هذا السيناريو نزلت الآيات المكية،ونضج أبو بكر وعمر وعلي وبلال وسعد وعثمان وبقية رجال الإسلام.

لـولا التربيـة المحمديـة فـي مكـة مـا سـمعنا لعمـر بـن الخطـاب ذِكـر، ولـن يكتـب عنـه التـاريخ، وسـيحيا ويمـوت مثـل كـل الناس، وكذلك حال كل الصحابة.

شـكرا لقـريش وعِنادهـا، شـكرا لأبـي لهـب وأبـي جهـل وأبـي سـفيان، شـكرا لخالـد بـن الوليـد حـين تسـبب فـي هزيمـة المسـلمين فـي غـزوة أحـد، وشـكر آخـر حـين أسـلم ثـم قـاد جيـوش الإسـلام لهزيمـة الفـرس والـروم. ولهـذا نـتعلم ألا نلعـن اللـون الآخـر حـين يقـوم بـدوره، فالشـر يسـتفز الضـمير ويُنبت الإيمان بتحديه له وصراعه معه.

المدينـة الفاضـلة حـرامٌ علـى هـذه الأرض، لـو وجـدت لوجـب علـى أهلهـا أنْ ينثـروا علـى الفضـيلة بعـض مِلـح الشـر، أكثـر بلـوى يبتلـى بهـا مجتمـع أن يكـون لونـا واحـداً، المجتمـع الـذي كـل أفـراده أشـرار لا بـد أن يكـون مجتمعـا فاشـلا، المجتمـع الـذي كـل أفـراده أخيـار لا بـد أن يكـون مجتمعـا فاشـلا،ولهذا كانـت إرادة اللّه وحكمته أن يهبط آدم إلى الأرض مع إبليس.

فـي كتـاب «باشـوات وسـوبر باشـوات» للـدكتور «حسـين مـؤنس»، مُعلقـا علـى عـدم تـولى «عمـر مكـرم» السـلطة عقـب جلاء الحملة الفرنسية:

«وتركهـا بـاردة ل (محمـد علـى) لأنـه يـدرك أنَّ إخوانـه المشـايخ لـم يكونـوا مسـتعدين لتأييـده، بـل تـآمروا عليـه مـع (محمـد علـي)، لنفيـه إلـى دمياط،وهـذه القصـة رواهـا بالتفصـيل المـؤرخ (عبـد الـرحمن الرافعي)،ولكننـا لا نحـب الحقيقـة أبـدا والتاريخ عندنا لا بد أن يكون،محلى بالسكر».

فـي هـذه الفقـرة يظهـر وجـه العملـة الآخـر لنـزع الشـوك الانتقـاء مـن التـاريخ بحيـث يصـبح خالصـا بـلا أشـواك، فيسـموا أبطالنـا فـوق البشـرية، كـل أفعـالهم واجتهـاداتهم

وفهمهم حكمة وتقوى، وحين ينفلت منهم حدث أو فعل تسبب في كارثة، ينسب اللوم إلى شخص آخر وتحتفظ الشخصية بالمثال، النتيجة أن الشخصيات التاريخية المتخاصمة والمتحاربة تكون معذورة في أفعالها، يصبح القاتل والمقتول شهداء نبلاء حكماء، ونخسر العبرة والدرس والواقعية، ونحتفظ بالسذاجة والتعصب، ويشتغل التاريخ ضدنا، لأنه محلى بالسكر.

الأشواك «في الواقع» تثمر الدرس والتجربة والحكمة، وحين ننزع الأشواك من «التاريخ» نحصد السذاجة ونقبل المتناقض ونكرر أخطاءنا ونقع في التقديس فلا نتعلم أبدا، لأننا مثل من ينزع الفائدة من الوجبة قبل تناولها فتمتلئ معدته بطعام منزوع الدسم، فيضعف الجسد ويذبل ولا يدرك الإنسان أنه من أضر بنفسه.

في الآية القرآنية « وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا» (الإسراء – 16).

الترف غير محمود قرآنيا، في بداية الحضارات تتصدر شخصيات قوية للبناء،غالبا ما تكون متقشفة وجادة وعندما تنجح وتقطف ثمرة هذا الجهد، ينشأ أولادهم في ظروف أفضل، وبتوالي الأجيال يأتي جيل يجهل كفاح الآباء وقيمهم، ويألف النعمة، جيل يحيا حياة بلا أشواك،وهذا الجيل هو الذي ذكرته الآية القرآنية، ينغمس في الترف والفسوق ويكون الخراب على يديه، ولهذا يجب على الأجيال الأولى أن تحرص على أن يمتزج الترف بتدريبات إيمانية وبدنية ونفسية وعقلية تنزع الجانب الضار للترف.

هذا المثال القرآني يرشدنا لأهمية الحياة التي تنمو زهورها مع أشواكها،فالآباء يقعوا في فخ الرغبة في تجنيب

أولادهم تذوق نفس المعاناة والمشقة التي صحبتهم في حياتهم، فيوفروا لهم حياة مترفة، وهذا هو الخطأ الفادح فلا بد أن يصاحب الحياة المترفة تدريب وتعليم وممارسة تعوض هذا الترف، فيكون الترف عامل إيجابي في تكون شخصيتهم ونفسيتهم،وفي هذه الحالة سوف يكون شخص بدون عقد.

طعام نبي

في المرحلة الجامعية، سمعت هذه القصة في خطبة جمعة:

«مَرّ أحد الصحابة على الرسول ﷺ وهو يتناول طعامَه مع أصحابه، فدعاه الرسول ﷺ للطعام، فرفض معتذرا بِشُغل أو ربما تَغَلَّبَ عليه الحياء، ومر الزمان وتوفي النبي ﷺ، وندم الصحابي لأنَّه بِعَفَوِيَّته الساذجة، فاتته فرصة تناول الطعام مع نبي، وهذه فرصة يحلم بها كل المؤمنين، فربما يُغفر له بها أو يَحرم جسده على النار أو ينال صحبته في الجنة.

عندما استمعت لتلك القصة في شبابي، صدّقتها وعظّمتها، ثم خرجت منها بفكرة حلوة وصوفية وخاطئة:

«أنَّ الناس قد يكون من حظهم نيل بركة ومغفرة بسبب دعوات تنالهم من صالحين ومُقَرّبين، أو بمشاركتهم الطعام أو الصحبة»

وكما يشتهر القول:

«أُحِبُّ الصالِحينَ وَلَستُ مِنهُم لَعَلّي أَن أَنالَ بِهِم شَفاعَه».

ولا أدري كيف بالمنطق نُمَرِّر فكرة أنَّ محبة الصالحين مع الإصرار على عدم الصلاح تُرَمّم الفجوة بين الطرفين، هل من المعقول أنَّ اللص الذي لم يتوقف عن السرقة، يُعفى عنه ويَلحق بالشرفاء لأنه يحبهم؟، أليست هذه الواسطة التي نمقتها في الدنيا، ويحرِّمها الدين!.

نحن نفتخر أنَّ المسلمين محظوظون لأنهم ولدوا مسلمين ووفر الله تعالى عليهم مشقة البحث عن الدين الحق والمتبركون بالصالحين أيضا محظوظون لأنهم وقَعوا على يانصيب المغفرة بفرصة التقائهم بالصالحين،هذه عقلية

الحصول على درجات عالية دون اجتهاد مباشر،والتي تغلبت على المسلمين مبكرا .. ولا تزال!

* * *

في الحديث:

أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَةِ المَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقالوا: ومَن يُكَلِّمُ فِيهَا رَسولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقالوا: ومَن يَجْتَرِئُ عليه إلَّا أُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: أتَشْفَعُ في حَدٍّ مِن حُدُودِ اللَّهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قالَ: إنَّما أهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أنَّهُمْ كَانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أقَامُوا عليه الحَدَّ،وايْمُ اللَّهِ لو أنَّ فَاطِمَةَ بنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا.

لا شفاعة بنسب ولا محبة ولا تفريعات جانبية يدخل منها اللصوص إلى ساحة الشرفاء.

* * *

سمع طاغية العراق «الحجاج الثقفي» أنَّ أمير المؤمنين «عبد الملك ابن مروان» عطس في مجلسه بدمشق، فحمد اللّه، فشَمَّته الحاضرون (يرحمكم اللّه) .. فرد عليهم بالدعاء (يهديكم ويصلح بالكم).. فما كان من الحجاج إلا أن قال: «يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما»

تمنى لو كان في الحضور ويدعو له عبد الملك فينال البركة!

* * *

القول المشهور «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس»، لا يعتبر حديثا نبويا،ولكن المجتمع والأفراد يؤمن ويمارس هذا المفهوم.

هل العِرق دساس؟ ، هناك مفهومان لكلمة دساس:

الأول: البيئة التي يتربى فيها الإنسان يَتَشَرَّبها وتُشَكِّل شخصيته وعاطفته ونفسيته ومفردات لغته، وخير شرح مباشر لهذا المفهوم هو الفيلم المصري "بدل فاقد" فالولد الذي تبناه ظابط شرطة جعل منه ضابط شرطة مُرَقَّه ومُثقف ويطارد المجرمين، والذي تبنته راقصة جعلت منه شابا متشَرِّبا ببيئَتِها الماجنة والشهوانية «ومع ذلك فلكل قاعدة ما يَنْقضها أو ما يشذّ عنها».

الثاني: أنَّ هناك وراثة جينية؛ فيتسرب إلى الإنسان بالولادة طبع (بخاصة خبيث) يسري في دمه، يولد الإنسان ومعه ذنب تاريخي لم يقترفه، يحمل مؤهلات وميول الغدر والفحش والخطيئة والخبث بمجرد الولادة، لأنه ورث جينات تؤثر في فعله.

وهذا المفهوم الثاني مستحيل قرآنيا لأنّهَ يَعفي الإنسان من المسؤولية عن الفعل، فيقول زنيت أو غدرت أو قتلت لأن عروقي مدسوسة بدوافع قهرية ورثتها من آبائي.

هناك مفهوم ثالث انجرف وراءه السنة والشيعة، فطالما تم السماح بنظرية أنَّ العرق دساس، كان بديهيا أن تُقَسَّم طبقات بحسب العروق، وأعلى تلك النظريات هي نظرية الأشراف وآل البيت وعِصمتهم، والعِرق هنا يُفهم بطريقة عكسية، فيَحمل المرء نبلا وشرفا وكرامة بمجرد الميلاد من نسل شريف، والدنيا حظوظ عند من لا يفكر ولا يتدبر.

الخلاصة أنَّ الناس سواسية، واختبار الدنيا يقتضي هذه المساواة، فلا يولد مع المرء شهادة شرف أو إدانة، فلا ينفعه طعام نبي ولا نسب نبي.

* * *

قام الباحث اليَمني «عصام القيسي» بتقديم تفسير مدهش لتكرار الآية «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» (الطبري – 47)، مع أنَّه يَكثر ذم بني إسرائيل لأسباب كثيرة منها :

« طلبهم صنم يعبدوه – توبيخهم واتهامهم المستمر لموسى – رفضهم دخول القدس – قصتهم مع البقرة – قتلهم الأنبياء – عبادتهم العجل .. إلخ»،فلماذا « فضَّلَ اللّهُ بني إسرائيل بالرسالة حتى أنَّ معظم الأنبياء والرسل منهم»

يقول «عصام القيسي»:

أكبر مأخذ على بني إسرائيل، جرأتهم على الإنبياء وضعف هيبتهم في نفوسهم، وهذا يعني أنهم بعيدون عن الافتتان بالرسل فلا يرفعوهم لدرجة الآلهة كما حدث مع بعض الأنبياء.

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ} (التوبة – 30).

فتأليه الأنبياء ينزع التوحيد من الدين، فيتحول إلى دين بشري، ولهذا كان التسامح مع غلظة وصعوبة طباع بني إسرائيل مقابل حصانتهم في أغلب الأوقات ضد تقديس الرسل، فلا يصدر منهم مصطلح طعام نبي ولا أحب الصالحين الذي يَخدع به بعض المسلمين أنفسهم.

* * *

يُحكَى أن رجلا عثرت قدمه في قطعة نقود ذهبية، ففرح بها، ثم ظل طوال حياته يمشي ورأسه منحني وعينه على الأرض يبحث عن قطع الذهب، فأهدر حياته بترك العمل.

* * *

في القرآن الكريم:

«مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» (الأنعام – 160)

هذه الآية هدية كبرى للمسلمين، وفيها إقرار بأن الإنسان به ميل وضعف قد يؤدي لانفراط ذنوب، ونسبة واحد إلى عشرة شديدة الكرم، وتريح القلب، وتشجع الإنسان على الصالحات، وتقاوم ميل الإنسان لليأس من نفسه حين يذنب أو يخطئ، فالتعويض متيسر بكرم، ومع ذلك لا ينتبه الناس لهذه الآية، ربما يرجع السبب إلى مبالغة الواعظين في تشديد عقوبة الذنب كنوع من الترهيب، ولكن الآية واضحة، ولو اشتغل عليها علماء الدين والوعظ لكانت فتحا للمذنب والطائع، فمن هزمه الذنب بسبب عادة أو غلبة شهوة فله فسحة من الوقت والخيارات لمغالبة هذا الضعف بممارسة الحسنات في مجالات بلا عدد، مجالات متيسرة للإنسان ولا تقاومها شهوة ولا طبع.

لو فقهنا هذه الآية لما أسرعنا للبحث عن طعام نبي أو التوسل بأحد الصالحين، فالانشغال بعمل الصالحات يُغني عن التمسح بمن هو عبد مثلنا ويخضع لنفس الامتحان في الدنيا.

ولو فقهنا هذه الآية لتنوع الناس في عمل الصالحات ومطاردة الحسنات،فكلنا خطاؤون وكلنا محسنون، هناك من يحسن بمنح المال وآخر بمساعدة المحتاج أو تعليم الجاهل وإرشاد الضال، فأبواب الحسنات بلا عدد، وهم خير شافع للإنسان.

* * *

في فيلم «الراقصة والسياسي» تقدمت الراقصة بطلب بناء منشأة خَيرية للأطفال، وتم رفض الطلب، لأنها راقصة والمال

لا بد أن يكون حلال، فما كان من الراقصة إلا أن ذكّرت الموظف برجال أعمال يقوموا بأفعال شيطانية يحتالوا بها على الناس، ويسهل قبول تبرع المال منهم، ثم عرضت عليه أن يكون المتبرع مساعدها وخاصة أنّه ليس راقصة وله فيش وتشبيه سليم «شهادة خلو من سابق مخالفة قانونية أو قضائية»، فرد الموظف بأنّه قد يقبل طلبه في هذه الحالة ثم قالت له: «هل تعرف أنّه مدمن مخدرات وأشياء أخرى (شاذ).

***

في هذا الحوار فكرة مدهشة، وهي أننا لا نستطيع أن نبدع جهاز كشف المال الحرام من الحلال، وقد أعطى الحوار جدلا حسم الفكرة بأنّ القانون منع مال الراقصة بالجسد ولم يستطع الوصول لمنع الراقصين بالسياسة والتجارة الفاسدة والنصب وبقية أنواع المال الحرام، ولأننا لا نستطيع اختراع هذا القانون وهذا الجهاز بعد، فعلينا أن نكف عن تقصد مال الراقصات بالجسد، فنحن نقبل تبرع مال غير المسلم مهما كان مصدر رزقه، ونقبل تبرع الدول الأجنبية وقروضهم، ومع ذلك نتشطر على الراقصات، ولا أقصد الراقصات بالتحديد ولكني أقصد مطاردة من نظن أنّ مالهم مختلط.

***

من الذكريات المدهشة والمتكررة في طفولتي أن يقول لي جدي وأمي وأقرباء آخرون: «لقد وضعت شهادة الاستثمار أو مال في البنك ولكني وقّعت على طلب عدم قبض الفوائد».

هـذه هـي الفتـاوي القديمـة، ولا يسـتفيد منهـا سـوى البنـك فيـربح ويتضـخم،وحين أعتـرض وأتسـاءل عـن البـديل البـديهي وهـو أن نقـبض الفائـدة ونعطيهـا للفقـراء .. يـرد الشـيخ وآخـرون: «وهـل نطعمهـم مـال حـرام»،والنتيجـة أن يحرم الفقير من مال ويكثر مال أصحاب البنوك.

***

فكـرة أن نمنـع الإنسـان مهمـا كـان مصـدر مالـه مـن التبـرع هـي فكـرة مدهشـة،فكرة تجعلنـا نتـدخل فـي أبـواب الخيـر المنفلـت مـن النـاس مهمـا كانـت ضـمائرهم وأعمـالهم فليتبـرع مـن يريـد بـأي مـال ولا نشـغل أنفسـنا بمصـدر المـال طالمـا للمحتـاجين، فـالتبرع تنفـيس عـن ضـمير ملتهـب فلمـاذا نمنعـه ، فقهيـا يتحـول المـال الحـرام إلـى مـال حـلال بمجـرد الميـراث.. فلـو كـان كـل المـال المـوروث مـن ربـا أو فسـاد أو عَـرَق راقصـة كمـا يقولـون.. يتحـول إلـى حـلال فقهيـا.. فيكـون حـلال علـى الـوارث .. ألا يسـتثنى معـه أيضـا تبـرع المـال مـن راقصـات وراقصـين المجتمـع مـن كـل صـنف ولـون .. ونعتبـر أن المجـال الخيـري يطهـر المـال... وهـذا علـى أقـل تقـدير أكثـر منطقيـة مـن غسـل الـذنوب بـالتطلع لطعـام نبـي أو محبـة الصالحين.

عرض غير لائق

هنـــاك «أفـــلام وروايـــات وأحـــداث» لا يمكـــن أن ننســـاها، نحـــن ننســـى كـــل شـــيء طالمـــا يجـــري وفـــق الـــروتين والعـــادة، ولكـــن تـــأتي لحظـــة تُختـــرق فيهـــا الـــذاكرة مـــن وراء الـــوعي، فَيَـــنْقش فـــي صـــفحتها مـــا لا يُمســـح طـــوال العمر،فللـــذاكرة شـــفرة، فـــلا يكتـــب فيهـــا إلا مـــن خـــلال ســـر ينفعـــل لا إراديـــا،وليس بمـــا نُقحمـــه فيهـــا ، ومـــن القصـــص التـــي نقشـــت فـــي ذاكرتـــي فـــيلم «indecent proposal»

* * *

رجـــل أمريكـــي ثـــري بـــلا حـــدود، يقابـــل فـــي حفـــلٍ ســـيدة، يملكـــه شـــعور أنـــه لـــم تقـــع عينـــه علـــى مثلهـــا طـــوال حياتـــه، رآهـــا تجســـيدا لجمـــال الجســـد والروح،فانفلتـــت منـــه مشـــاعر الفقـــر شـــعر أنَّـــه مســـكين ومحـــروم طالمـــا لـــم يـــرتبط بهـــا، ويحســـد زوجهـــا علـــى حظـــه النـــادر، ثـــم يســـمعها تبـــوح بصـــوت مســـموع أنَّ ثمـــن تُحفـــة واحـــدة ممـــا يتنـــاثر بـــالحجرات يحـــل مشـــاكلها كلها».

هنـــا ســـأتوقف كـــي أتخيـــل هـــذه القصـــة مصـــرية قبـــل أنْ أرجـــع بها إلى أصلها الأمريكي.

* * *

لـــو كانـــت القصـــة مصـــرية لكانـــت تكـــرارا لحكايـــات معروفـــة مـــن قهـــر الرجـــال واغتصـــاب النســـاء، ســـمعنا قصصـــا عـــن شخصـــيات ذات ســـلطة قاهرة،اســـتعملت نفوذهـــا للإســـتيلاء علـــى الزوجـــات، قتلـــت الـــزوج أو أرغمتـــه علـــى تطليقهـــا أو قبـــول علاقـــة محرمة مع الزوجة ويصمت.

هـذا السـيناريو مصـريا وعربيـا مقبـول ومعتـاد فـي عالمنـا الثالـث، يـذكرنا بفـيلم الزوجـة الثانيـة، ومـذكرات «اعتمـاد خورشـيد» ومأسـاة السـندريلا، ويـذكرنا حـديثا بفـيلم «مرجـان أحمـد مرجـان» ذلـك الثـري خفيـف الـدم الـذي أغـرى الـزوج بمنصـب ومـال، فتـرك خطيبتـه بسـهولة، فأثبـت مرجـان لهـا أنَّ كل الناس تُشترى بالمال وتَشرب «الشاي بالياسمين».

* * *

أمـا عـن النسـخة الأمريكيـة فـالأمر مختلـف، التـوحش نـاعم وبـلا مخالب حديدية ولكنه واثق وبطيء وحاسم ووفقا للقانون.

يتوجـه الثـرى إلـى الـزوجين ويعـرض عليهمـا صـفقة، عَـرَض مبلغـا مـن المـال يُحـدث لهمـا قفـزة كبيـرة فـي حياتهمـا، علـى أن تقضـي المـرأة معـه عـدة أيـام يسـتمتع بهـا ومعهـا، ثـم تعود لزوجها سالمة.

رفـض الزوجـان فـورا وبقـوة، ثـم رجعـا للمنـزل، ودارت عجلـة التفكيـر فـي رأسـيهما، فـالثري قـذف البـذرة فـي روعهمـا وتركهـا تشـتغل، قـالا لبعضـهما: «ألا تعلـم أننـي قبـل أنْ أتزوجـك مارسـت الجـنس مـع آخـرين، وأنـت أيضـا فعلـت ذلـك هـذه هـي أمريكـا وطبيعـة حياتنـا، هـل كـان لتلـك العلاقـات تـأثير علـى حاضـرنا، لقـد طوينـا تلـك الصـفحات والتجـارب واختـار كلانـا الآخـر وأصـبحنا سـعداء» ، «مـاذا لـو وافقنـا، وبعـد تنفيـذ الصـفقة نلقيهـا فـي سـلة الماضـي ونمحوهـا مـن الـذاكرة، فالحـب بيننـا مُحَصَّـن ولا يمكـن المسـاس بـه» فكـرة عقليـة بسـيطة .. فـي سـلة مهمـلات حياتنـا علاقـات كثيـرة مـن الماضـي وسـوف نلقـي هـذه العلاقـة القصـيرة فـي نفـس السـلة بعـد الانتهـاء منهـا..ثم نعـود لحياتنـا ومعنـا ملايـين الـدولارات، بيـع وشـراء وننسـى الصـفقة كلهـا، هـذه هـي الرأسـمالية العاريـة، ولا تعـايرني ولا أعـايرك، فـنحن العـرب لـدينا نمـوذج للقهـر بالعصـا وهـم لـديهم نمـوذج للقهـر

بالجَزَرة، وكلاهما يسلب الإرادة، كما جسَّدَها «يوسف إدريس» في قصته «النداهة»

***

وتمت الصفقة .. ذهبت وهي واثقة أنَّ مشاعرها وذاكرتها الجسدية لن تُمس، فجسدها الذي انفعل بآخرين كثيرا، لا ضرر عليه أن يخوض تجربة انفعال أخيرة ثم ترجع، ولكنها نسيت أمرا خطيرا خبيثا، نسيت الفلوذج.

***

كان الفلوذج طعام الملوك في زمن العباسيين، تشتهر منه قصة أحد علماء الدين الذين لم يستطع المَلك أن يؤثر على ضميره، فاستدرجه لمأدبة طعام بريئة، فقبل الحضور وذاق الفلوذج، ثم لم يجد بعدها نفسه، وأصبح من علماء السلطان.

قد تكون هذه قصة حقيقية أو من الخيال ولكن يظل المثال صحيح، أن يتذوق الإنسان شيئا، ماديا أو معنويا، ثم لا يجد نفسه بعدها.

***

فوجئت المرأة بأمرين: الأول: الرفاهية الطاغية .. فالطعوم والأذواق والروائح كلها جديدة وبعيدة عن خيالها البِكر لم تكن تدرك أنَّ في الدنيا مثل هذه الاحاسيس الفاحشة الثراء والمتجاوزة للخيال، فاشتغل كل هذا فيها، وأصبحت أشبه بمن تعاطى أنواعا سحرية من المخدرات التي ينفعل بها كل ما فيها روحا وجسدا، فكان لا بد أن يترك كل هذا أثرا بعد أن تغادر الحياة الساحرة.

الثاني: مشاعر الثري كانت كثيفة وصادقة، لأنه عرف قيمتها وأدرك أنه فقير بدونها، ووصلت تلك العناية والمشاعر لها

ولم تهزمها ولكنها تركت أثرا عميقا مثل أثر الروائح والرفاهية فيها.

وكان طبيعيا أن تعود لزوجها بعد الصفقة وهي تترنح،لأنها تحمل آثار اغتصاب طوعي نادر وليس له مثيل،ولكنها لم تكن تترنح وحدها،فكلاهما يعاني أعراض ما بعد الصدمة.

عادت وعلى جسدها وخيالها وأحاسيسها وذاكرتها خدوش التجربة،ولكي تنفضها عنها ستحتاج وقتا، فالأمر أصعب من الأعراض الانسحابية للمخدر، لكنها رغم ذلك مازالت تحب زوجها، ولا تريد صاحبا في الحياة سواه، وما تريده فقط الصبر عليها حتى تسترد نفسها بعد أن تعرضت لزلزال ناعم كالماس وقاسي كالماس.

عادت مرتبكة، وأدرك زوجها الفرق والاختلاف .. وافترقا.

الأثرياء هم فقراء القلوب، يحسدون الفقراء على أشياء ليست عندهم،ولو كانت عندهم لما أصبحوا أثرياء، لم يكن الثري ليكتفي بما نال من متعة، فهو جامع التحف، ولا يرضى أن تبيت التحفة بعيدا عنه،فنسج فخاخا جعلت المال الذي قبضوه بعيد عن تحقيق حلمهم،واستخدم هذه الفخاخ في اصطيادها وخاصة أن الزوج استدعى الغيرة في وقتها الخطأ، وتخلى عنها في طفولة شعورية.

همت بالزواج من الثري الذي كاد أن ينجح بالفوز بها كزوجة ليكتمل ثراءه الحقيقي، ثم سارت القصة إلى نهايتها ليسترد زوجها، ولكن لا يهم الختام والتفاصيل، المهم أن القصة تمر على كل أحاسيس المشاهد فلا يرجع كما كان قبل مشاهدة الفيلم.

يرتبك يحتار يهتز يُصدم يحاول لملمة أفكاره ومشاعره وقِيَمه .. ويتأمل.

هـذه هـي وظيفـة الخيـال.. إطـلاق أفكـار بـلا حـدود وبـلا رقابة..ودراسـة أثرهـا .. والـتعلم، حتـى أننـي تسـاءلت عـن مـدى انطـلاق الخيـال الأمريكي،وهـل يقـدر علـى عكـس المثـال بـأن يجعل الثري «إمرأة» تتقدم للزوج الفقير بعرض غير لائق!

* * *

مـا الفـرق بـين مـن عقـد هـذه الصـفقة بإرادتـه وبـين مـن أجبـر عليهـا .. قـد يقـول المصـري: «إنَّ المثـال عنـدنا أخـف قيميـا لأنَّ الاغتصـاب رغمـا عـن الـزوج»، ولكـن ألا نـرى أن هنـاك قصصـا حقيقيـة سـمح فيهـا المجتمـع بهـذا الاغتصـاب والقهر؟..المجتمـع عنـدنا أخـرس .. سـلبي .. يخـاف علـى لقمـة العيش.

أتـذكر قصـة تحكـى عـن فنانـة مصـرية جمالهـا ملائكـي، تألقـت وأصـبحت نجمـة واعـدة، ثـم فجـأة تـوارت وكـاد أن ينسـاها النـاس حتـى توفيـت، علـم الجميـع مـن زملائهـا أنهـا قهـرت بسـبب رفضـها أن تخـون زوجهـا مقابـل فـتح بـاب المـال والشـهرة علـى مصـراعيه لهـا، رفضـت ونالـت العقـاب واغتيلـت فنيـا، ولـم تجـد مـن زملائهـا مـن يقـف بجانبها،شـعرت أنهـا فـي جزيـرة معزولـة، قـال لهـا مـن حـاول إغرائهـا: «لمـاذا لـم تفعلـي مثـل الآخـرين»، فـي هـذه القصـة تلمـيح بـاللون الفـاقع إلـى أنَّ هنـاك مـن قبلـت ثمـن الاسـتمرار فـي عـالم الشـهرة، وهنـا يظهـر المجتمـع الجبـان الـذي يتـرك الزميـل يُقهـر أمـامهم وحـده، ويختـاروا الصـمت كـي يحـافظوا على لقمة العيش.

هـذا مجتمعنـا .. لا يغتصـب الفـرد وحـده إلا ومعـه مشـاركة مـن بقيـة المحـيط بالصـمت الرهيـب كمـا أغنيـة «عبـد الحلـيم حافظ».

* * *

في القصة، رغم فظاعتها وصدامها مع قيمنا وخيالنا، إلا أنها تحكي إتفاق،بإرادة حرة، «إتفاق نبيل أو شيطاني لا يهم، المهم الإرادة حرة،كل شيء فوق السطح، هذه هي الحرية، نختار النبل أو الأبلسة،الخير أو الشر، الضعف أو القوة، الإيمان أو الكفر» .. ورغم ذلك لا يُعد ذلك مدحا لهم،فكثيرا ما تُقهر هذه الإرادة عن بعد، كما تُحكم عن بعد، وكما يفعل جهاز التحكم عن بعد في الأجهزة الحديثة.

نحتاج أنْ نتأمل ونقارن ونخرج بالعبرة .. فالقصة ليست قصة رجل طمع في زوجة آخر.. بل وراءها علامات استفهام بلا حدود .. وفي السؤال سبع فوائد.

استنبات القارئ

تحكي نكتة شهيرة أن: «شاهد خواجة إنجليزي فلاحاً يتناول وجبة من المِش الذي يسبح فيه الدود بكثافة فأقسم أنه سيموت فورا بسبب هذه الوجبة من الميكروبات، وعندما أتم الفلاح الغداء اللذيذ وقام لمواصلة الفلاحة وكأنه تناول وجبة فيتامينات منشطة، مات الخواجة من الصدمة».

* * *

كانت بدايات عصر الإمبراطوريات البحرية الاستعمارية ممثلا في «إسبانيا والبرتغال وهولندا»، ثم تراجعوا وحل مكانهم الإمبراطورية «الفرنسية والبريطانية»، ومن التفسيرات المنطقية لتراجع الإمبراطوريات الثلاث قلة عدد السكان عندهم، وكثافة عدد سكان فرنسا وبريطانيا،فحروب نابليون مع كل أوربا في حملات متتالية كان يعززها عدد سكان فرنسا المتزايد، ويُروى عن نابليون حين عوتب في القتلى والجرحى من الفرنسيين في معاركه أنَّه قال: «راتبي السنوي مائة ألف جندي،فطبيعي أن أخسر عشرين ألف في المعارك»، فكان ردا مدهشا لتشبيهه الجنود كراتب سنوي.

حين احتلت فرنسا الجزائر عام 1830م، كان عدد سكان فرنسا يقترب من الثلاثين مليون، وكان عدد سكان الجزائر ثلاثة ملايين، فكان عدد السكان عامل مهم في فرض الاستعمار وفي ضعف قدرة الشعوب على مقاومة المستعمر أو السلطة الغاشمة، ويستثنى من هذه النظرية «الهند»،فقد تم احتلالها لقرون بعدد قليل من الجند

ولكن يعزى ذلك إلى أنّ الاحتلال كان في البدايات ولمدة طويلة على الساحل الهندي فقط، ثم جاء التوغل بمرور السنوات الطويلة تدريجيا.

* * *

أتقمص نفسية الخواجة وأنظر اليوم إلى عدد السكان في مصر.. فمصر وبسبب تاريخها العريق مع الفقر والاستعمار والاستبداد عبر قرون طويلة، كانت تبتلى بالمجاعات والأوبئة التي تُنقص من عدد السكان،وحين تسلمها «ناصر» كان عددهم 18 مليون، واليوم وصل العدد أزيد من 110 مليون، «قفز العدد إلى ستة أضعاف»، لهذا من المستحيل أن يستمر الحال دون عقد اجتماعي جديد لأنه: «من المستحيل أن يظل المواطن نملة تُحلب وتُفرم.. من أجل الوطن كما يقال».

«من المستحيل أن يظل المواطن مفعولا به دون أمل في حقوق الحياة التي تتباعد عن إمكانه كل يوم.. الأكل والشراب والزواج.. من أجل الوطن كما يقال»

ولهذا أقول كما قال الخواجة: «مستحيل.. لا بد من عقد جديد يكون للمائة وعشرة ملايين رأي فيه، فحظيرة الخراف المحاطة بسور ثابت، ومع تكاثر الخراف داخله، لا بد أن يتزحزح السور من جوانبه ونحن لسنا أقل من الخراف أو على الأقل نتساوى بها».

هناك دائما خاطر غالب على الإنسان، يتردد داخله دون وعي وهو هَمّهالأكبر، مثل من يعشق فتاة فيتغلب عليه – كل الوقت – التفكير فيها، الأمثلة كثيرة وتختلف بحسب السِر في كل إنسان، هناك من فتاته: «المال – السلطة – الانتقام – الهجرة – أو أحلام شاردة».

ولا أنكر أن فتاتي في رحلة الحياة تقلبت بين هذه الأصناف وغيرها،ولكن فتاة اليوم التي هي حلم المحطة الأخيرة – قصرت أو طالت – تختلف، يغلبني بسببها شعور من كان في يده ثروة كبيرة وأهدر وأنفق أكثرها، وتبقى القليل ومعه ثمرة الرحلة من الخبرة والمعرفة وربما الحكمة،ولا يجد لها سُوقا، وكلما مر عام يخترقه شعور من هبط إلى ملعب الحياة والوقت يمر ولا يحرز أهدافاً، رغم أنه تدرب بما يكفي..ويدرك أن لو أطلق حكم المباراة صفارته سوف يخرج بلا عودة...وسيندم..ويقول ليتني وليتني.. وفي ندمه تأتيه الحكمة الأكبر متأخرة.. ويصبح بصره حديد.. ويرى الثغرات التي كان من الممكن أن يشتغل عليها ولكنه عمي عنها.. فلم يستخدم آلاته واشتغل فيما لا يثمر ولا يَخلد.

* * *

هذا المجتمع مغلق إغلاقا أشبه بالسحر.. وهذا تطور جديد في آخر خمسين عاماً، أصبحت العلاقات مستحيلة رغم أن الناس يزدحمون في اللوحة.كما لو أنَ هناك غاز يتنفسه الجميع فيمنع التواصل.. فالكل يراك مثلما يرى السيارة لكي يتجنب الصدام معها وفقط.. الكل يتحدث إليك وكأن الثانية التي سينفقها في الحديث معك ستفقده ملايين الدولارات..وربما يخشى أن يتورط معك في أي التزام.. وربما يسترخمك ويراك أحمقا والأفضل أن تختفي من اللوحة.. ربما وربما.. ولكن الخلاصة.. لا تواصل.

* * *

في الماضي حين كنت طفلا وصبيا ومراهقا وشابا كان هناك من يؤثر في مسار حياتي.. كان هناك دفئا وحياة تنبعث من المحيط.. جيران وأصدقاء وأقرباء وزملاء الفصل ومعلمين.. إلخ..

الكل يتواصل معا ويُلهم بإشارات الطريق.. التحقت بالهندسة بسبب جاري الذي يكبرني بسنوات.. وأدمنت القراءة بسبب جار آخر..وتدينت طفلا وصبيا بسبب معلم بالمدرسة.. وهكذا كانت الحياة في كوكبنا قبل أن ينطلق هذا الغاز الخفي الذي جعل العلاقات زئبقية ومستحيلة.. فأصبحت اللوحة وكأنها تجمع مسحورين خاضعين للتنويم المغناطيسي.. كل واحد ينطلق وفقا للسحر الذي تنفسه بلا وعي.

* * *

يقول الدكتور «عبد الكريم بكار»: «إعراض شبابنا عن القراءة مشكلة أكبر من مشكلة البطالة والطلاق وإدمان المخدرات، لأن الجهل هو الطريق السريع لذلك».

حاولت كثيرا وطويلا أن أبحث عن قارئ لأعلمه الكلمة والمعنى والخيال والتعبير.. والرأي، فهذه بضاعتي الأخيرة ولم أفلح حتى الآن رغم تكرار محاولاتي.. فلا يفهم الناس إلا الدروس الخصوصية.. تقوم بتدريس مادة وتأخذ مال يا «مستر»، لا يفهم الناس أنْ تتبرع بتعليم الناس علما مجانيا وغير مدرج في المنهج الدراسي، يرتابون في عقلك أو نيتك، فالناس لا يهمهم أن يدمن ابنهم القراءة.. بل يحتقرون ويحذرون ذلك، ليدمن أي شيء إلا القراءة.. فالقراءة تعني مخ فاضي.. ومثاليات بعيدة عن الواقع.. والأفضل أن يتعلم ما ينفعه ويُترجم إلى مال، ولكن مهما أطلقنا من ثرثرة، فالمجتمع أصبح من الرمال، وأرض الرمال تحيا وتخلد مثلما تخلد الصحراء بلا ثمرة، ولكن مجتمع الرمال البشرية مهدد بالفناء، ولهذا لا بد من استصلاح الصحراء البشرية ولا بد من بداية.

* * *

في جسم الإنسان عناصر كثيرة معروفة، ويراعى إجراء تحليلات متكررة لمعرفة نسب تركيز هذه العناصر في الجسم، وهناك عناصر قليلة ودقيقة أيضا، المدهش أن سلامة جسم الإنسان في اتزان كل هذه العناصر،بمعنى أن اختلال أي عنصر «أساسي أو ثانوي» يؤثر ويورث مرضا أو ضعفا، ومثال ذلك فيتامين «دال»، يؤدي النقص فيه لأمراض خطيرة وخبيثة، ومهما حاول الإنسان التسلح بأسباب الصحة ونسي هذا الفيتامين سوف يذهب جهده في نيل الصحة هباء، ويُطَبَّق نفس القانون على النباتات، فخبراء التسميد يعرفون أهمية توازن نسب العناصر التي يجب تغذية النباتات بها.

كل مجتمع يحتاج ما يؤمن له طعامه وشرابه وكساءه ودواءه وبقية المتطلبات التي تقيم المجتمع، يحتاج أيضا تخصصات هامة، هناك مدينة تحتاج ثلاثة أطباء في كل تخصص، فلو توفر طبيب فقط لكل تخصص لصعب تلبية احتياجات هذه المدينة، فماذا لو عَدمت هذه المدينة الأطباء وتولى العلاج حلاق الصحة؟، لا شك أن هذه المدينة معرضة لخطر شديد، فماذا لو أنَّ أهل هذه المدينة يؤمنون بخبرة وبركة حلاق الصحة ويفضلونه على الأطباء؟ لا شك أنَّ المصيبة سوف تتفاقم، لأن اعتقاد الناس سوف يكون حائلا كثيفا أمام إقناعهم بضرورة تحريض بعض أبنائهم على نيل شهادة الطب بأسرع وقت.

لن أحتاج للتخيل لأن ما سأصفه هو الواقع، واقع أنَّ كل أطفال وصبيان وفتيات وفتيان المدينة لا يوجد فيهم من يهوى القراءة ويتذوق الكلمة، فالموبايل والشاشة وبقية الأدوات الحديثة أبعدتهم تماما عن الكتاب وسوق المعرفة وبهذا أصبح القارئ نادراً أو غير موجود في المجتمع.

قارئ بين مائة فرد جيد، وقارئ بين ألف جيد، وقارئ بين عشرة آلاف ليس كافيا ولكنه يسد الحاجة، وقارئ بين خمسين ألف مصيبة لأنه سيذوب في المجتمع، وقارئ بين مائة ألف مصيبة أكبر لأنه يعتبر صفر قارئ، وطالما القراءة والقارئ مختفي في مجتمعنا فلا بد أنه مجتمع بلا معرفة ولا خيال ولا حكمة، ولهذا وجب توفير هذا المخلوق النادر الذي يسمى «القارئ»، ونظرا لأنه أصبح مع المستحيلات الثلاثة «الغُولُ، والعنقاءُ، والخِلّ الوفِيّ»، فوجب تدبير مناخ وظروف وصُوب صناعية لإنبات قارئ في صحراء شعبنا.

في تاريخ البشر حدثت مجاعات وأوبئة كثيرة ومهلكة وكادت تُفني البشر،ولقد كان من حسنات اكتشاف الأمريكتين معرفة «تقاوي البطاطس»، فهذا الطعام تسبب في منع المجاعات في الأرض، ومازال يعتبر طعام الفقراء لنتخيل أول رحلة بحرية قادمة من أمريكا وعلى متنها شوال ممتلئ بتقاوي البطاطس، كم يلقى هذا الشوال من عناية حتى يُحتفظ بالتقاوي سليمة دون أن تفسد، وكيف الجهد المبذول في نثر هذه التقاوي في الأراضي بحرص والخطوات الأولى لرعاية انتشار زراعة البطاطس في البيئة الجديدة بنجاح حتى تصبح البطاطس في كل مكان،وشكرا للأبطال الذين اكتشفوا ونقلوا هذا الطعام لبقية قارات الأرض وأنقذوا الفقراء.

* * *

نظرا إلى أنَّ مجاعة العقول لا تقل عن مجاعة البطون والقارئ هو بذرة الحكمة التي يحقن بها المجتمع فيرشد، ولا بد أن يكون القارئ ابن البلد،فتكون قراءاته معجونة بخبرته بمجتمعه وجغرافية بلده ومناخها، فعلينا توفير مناخ أشبه بنظام «مدارس المتفوقين والعباقرة»، فحين تكون الدولة لاهية أو عاجزة عن توفير المناخ العلمي المثالي لكل

الناس، عليها أن تخصص مدارس تملك أعلى مستوى من رعاية المواهب التي سوف تحفظ للمجتمع تفوقه العملي والفكري.

على المجتمع واجب مواز، فكما يحدث في نوادي كرة القدم،حين يتبرع مشجع من رجال الأعمال، فيمنح سيارة للاعب أحرز هدفا، أو يتبرع بنفقة رحلة تدريب فريق لبلد أوربي، علينا أن يتطوع منا من يعلن في قصور الثقافة أو النوادي الأدبية عن مسابقة في القراءة وتكون جوائزها مغرية للشباب، فيقرأ من لم يجرب حلاوة القراءة طمعا في الجائزة والتسابق، وبهذه الطريقة تبدأ زراعة بذرة القارئ في بلادنا، ونبتدع قناة دفق تبرعات خيرية جديدة تخدم نمو المعرفة، ويخف الضغط قليلا على التزاحم على التبرع لشنطة رمضان ومستشفى خمس خمسات.

تحت الجلد

يعرف الجميع سجنَ الدولة، حَبْس في مبنى محاط بأسوار عالية وحراسة مشدَّدة لفترة زمنية، تُقَيد حرية السجين ويصبح تحت سيطرة إدارة السجن، وينتظر يوم الحرية بصبر نافذ.

السجون التي تحت الجلد في أغلبها اختيارية، تكمن في العقل والمشاعر والأحاسيس، وما أكثرها نوعا وما أفدحها أثرا، ولكنها خبيثة، قد يحيا الإنسان عمره كله ولا يشعر كونها سجن أو قيد، فلا يخطر بباله التحرر منها، بل يظل متمسكا بها وكأنها جزء منه أو ضرورة سلامة حياته الغافلة.

الطفل الذي يُغْتَصَب أو يمارَس عليه تنمر، يوهمه المعتدي أنَّه لو أخبر أهله بما حدث فسوف يعاقبوه، ولكن الحقيقة أنَّهم لو عرفوا لعاقبوا المعتدي ولنجا الطفل، ولكن الطفل مسجون في الوهم، ولولا أنه قليل الوعي لما ظل في هذا السجن بإرادته، ويبدوا أننا جميعا أطفال الوهم الساذج.

قد يُسجن الإنسان في مشاعره الضالة أو أحلامه الطائشة علماء الفلك الذين يطلقون عيونهم إلى السماء، يدفعهم الفضول للتفتيش والتجسس في ملكوت اللّه، قد يعتريهم شعور بأنهم مسجونين في الأرض، فيشعر الفلكي وكأنَّ حواف الأرض تضيَّق على جسده، لأن خياله سبقه خارجها ويحلم بوضع قدمه على المريخ والتنزه بين النجوم في السماء،الإنسان المهزوم أو المقهور أو الفاشل في بلده، تسبقه أجنحة خياله إلى دولة أوربية أو أمريكا ويضيق بكل ما في بلده من ماء وهواء وبَشَر، ولا يحسب

الأيام التي تمر من عمره طالما لم تطأ قدمه أرض الأحلام،تخنقه مشاعر المسجون في بلدة.

من قصرت همَّته وظروفه عن حب أو حلم، يظل يطارده ويتبعه بصر خياله، تتساقط قطرات منه على أيامه فتفسدها، ولا يشعر بثراء نِعَم الحياة المتناثرة بين يديه.

السجون المتوهمة والاختيارية لا تعد ولا تحصى، ولو حدثت المعجزة وأدرك السجين أنه سجن اختياري، لهرب منه حين يكتشف أنها ليست أسوارا عالية وحصينة ولكن دائرة رسمها بنفسه على الرمال.

***

من أقوى السجون الفكرية ما يقع تحت مسمى الأيدلوجيا،سواء كانت دينية أو علمانية أو شيوعية أو قومية.. إلخ، لأن الأيدولوجيات تتحول إلى دين، وتصبح مقدسة، فيطول السجن بسبب وهم القداسة، ووهم الطريق الصحيح الوحيد.

أعرف شابا انتمى لتيار أيدلوجي، وهي كثيرة، "دينية أو ماركسية أو علمانية أو قومية"، دافع الشاب عن تياره بكل كيانه، وتورط في سجن سياسي عشر سنوات، وفي السجن وجد الوقت للقراءة في مجالات خارج ما يحمله من أيدلوجيا،أدرك ثغرات وأخطاء كثيرة، تحدث مع زملائه،رفضوه واعتبروه خارجا عن الصف ثم اتهموه بالتجسس وتقدموا بشكاوى ضده حتى صدر أمر انتقاله إلى سجن في أقصى الجنوب بعيدا مئات الكيلو مترات،فكانت أسرته تتكلف عناءً شديد حين تزوره، ولكنه مع ذلك كان سعيدا بالحرية، وكان يردد قائلا: "لولا هذه الحرية لكنت أسيراً بقية الحياة".

تحكي الأسطورة عن شخص يدخل قصرا، يفتش ببصره فيه،يرى أمامه شخصا متقلدا سيفه ساكنا في مكانه، يهرع إليه ويُشهر سيفه، فيسارع الآخر إليه شاهرا سيفه، يدور بينهما النزال لمدة طويلة، لا يستطيع أن يتغلب عليه،حتي يبلغ منه الجهد، يبتعد ليلتقط أنفاسه،

يسكن قليلا ثم ينظر لغريمه حذرا، فيراه ساكنا يلتقط أنفاسه، يتعجب ثم يشك ثم يُحدث حركات مقصودة،فيحاكي الشبح الذي أمامه نفس الحركات،يكتشف أنه أمام مرآة مسحورة، وأنه يصارع شبحه في المرآة،يصارع خياله وأوهامه، ولو توقف الصراع في خياله لاختفى الشبح، واستراح الإنسان، وتحرر من سجن مشاعره الضالة.

* * *

اشتهر مسلسل "ليالي الحلمية"، وقصة الصراع الثأري الحقود من العمدة "سليمان غانم" تجاه رجل الصناعة "سليم البدري"، صراع القط والفأر الذي استغرق عشرات السنين، حين تعرض "سليم البدري" لحادث قد يودي بحياته، كان أكثر من سيطر عليه الحزن والقلق هو خصمه "سليمان غانم"، واندهش الجميع لهذه المشاعر، توهم "سليمان غانم" أن لو مات غريمه سوف يفقد طعم الحياة التي عاشها ولم يذق غيرها،فالصراع بينهما هو وقود حياته، أصبح شعوره مثل السجين الذي يوشك أن يصدر أمر الإفراج عنه، فتجمد من الحيرة لأنه نسي الدنيا خارج السجن،ويخاف أن يُتَهته ويَحبو ويَتَعثر فيها، كانت حياة الصراع هي السجن الذي اختاره "سليمان غانم" لنفسه، فلا يمهر حياة أخرى،لنتخيل المستحيل والنادر الذي لا يفعله أغلب الناس، أن يتوقف "سليمان غانم" ليتأمل نموذج

حياتـــه، فيـــدرك حيلـــة المـــرآة المسحورة،ويضـــحك مـــن حماقتـــه،ويغادر حلبـــة الصـــراع ويتمتـــع بالســـلام وخلـــو القلـــب من الأحقاد، لو حدث هذا لكان سيناريو حياته مختلفا.

الـذي يسـكن فـي غرفـة بهـا خمسـة أبـواب لا يُعتبـر سـجينا إلا حـين توصـد الأبـواب كلهـا، بـاب واحـد مفتـوح يلغـي وصـف السـجن، وهـذه الأبـواب تمثـل بعـض خيـارات الإنسـان فـي الـدنيا، وهـي ليسـت خمسـة فقـط، بـل كثيـرة جـدا، ولكـن لـو تأملـت أغلـب النـاس لاكتشـفت أنهـم يتعلقـون بخيـار واحـد ويهملـون بقيـة الخيـارات، ويكـون حـالهم مثـل سـجين غرفـة الخمسـة أبـواب الـذي لا يقبـل إلا أن يخـرج مـن بـاب واحـد محكـم الغلق، ويرفض الخروج من الأبواب الأخرى المفتوحة.

كثيـر هـؤلاء الـذين يسـجنون أنفسـهم فـي حجـرة والمفتـاح فـي جيـبهم، وكثيـر مـن حجـرات الأفكـار والنفسـيات والعواطف والمواقف تسجن الإنسان والمفتاح بيده ولا يعي.

* * *

سـوف أضـرب مثـالا للسـجون تحـت الجلـد، بحـالات الشـقاق بـين الأزواج فـي بلادنـا، لأن المـرأة الواقعـة تحـت تنمـر أو المـرأة المطلقـة، مثـال صـارخ لسـجينات الفكـرة والمخـاوف ، طرحـت هذا السؤال على شريحة كثيفة من الدائرة حولي:

"حـين يحـدث شـقاق بـين الأزواج وتـرفض الأم رعايـة الأولاد وتتـركهم لـلأب، مـا هـي نسـبة الآبـاء الـذين سـوف يهملـون أولادهـم؟"، كـان أغلـب الإجابـات لا تتعـدى 5% وربمـا أقـل بكثيـر، وأتفـق مـع هـذه الإجابة،فالأصـل فـي الأب الطبيعـي هـو الرحمة بأبنائه.

كنت صديقا لأسرة من أربعة أفراد، المرأة تدور في ساقية رعاية الأولاد، والرجل يدور في ساقية العمل، وكانت العلاقة باردة بين الزوجين، تعلق قلب الزوج بفتاة وقرر أن يتزوجها وعلمت الزوجة فصُدِمت ثم ثارت، وأثناء توسطي بين الطرفين، كانت الزوجة تريد الطلاق والاحتفاظ بالأولاد، وهذه الرغبة ترجع إلى توهمها أن لو تولى غيرها رعايتهم لضاعوا، وكان الزوج يرسم خطته معتمدا على تعلقها بالأولاد، يخطط أن يُطَلقها وينفق عليها وعلى الأولاد بسخاء، ويبدأ حياة أخرى مع التي يظن أنها ستسعده وكنت أعلم أنه لو تزوج أخرى سوف يحمل نفس الفيروس الذي أفسد حياته الأولى وأنه سوف يفسد الحياة الثانية نصحته، ولكنه كان أسير الهوى، فما كان مني إلا أن أقنعت الزوجة بأن تُعلمه أنها سوف تتخلى عن الأولاد له، وكنت أعلم أنه لا يمكن أن يسمح بإهمال أولاده، فصدقتني زوجته وأخبرته بقرارها،فتراجع بسرعة وتخلى عن مشروع الزواج وعاد لزوجته وأصلح كلاهما من أنفسهما وأصبحت أسرة مستقرة وربما سعيدة.

هذا السيناريو واقعي، ولكن للأسف معظم النساء تتوهم شيوع صلابة قلب زوجها تجاه الأبناء، وتجهل أن هذه الصلابة ليست الأصل، ولكنها حالات شاذة، فتضطر إما أن تتحمل حياة مهينة وشاقة، أو تنفصل وتتحمل الأولاد وحدها وبالتالي تندر فرص الزواج ثانية، بينما يصبح الزوج حرا ومتيسرا له الارتباط ثانية وربما ثالثة.

هذه القصة توضح سجن الفكرة والشعور، قد تسيطر علينا فكرة ضالة وخاطئة، ولكن نتمسك بها وتأسرنا مخاوفنا فنشقى وتصبح الحياة مُرَّة ومؤلمة.

* * *

عندما يقضي الإنسان معظم حياته في قريته؛ يظنها الكمال والجمال والمثال، وأن قوانينها وعاداتها وتصوراتها كونية، وحين يسافر إلى(المدينة.. العاصمة.. باريس.. كل بلاد العالم)، ينظر لقريته كما ينظر لرحم الأم الضيق حين انزلق منه إلى الدنيا الواسعة، تتكون في ذهنه صورة حقيقية لحجم وقدر قريته في العالم، ويراها مثلما نرى قريتنا على الخريطة في جوجل، ويدرك الفروقات الهائلة في؛ "الأفكار.. العلوم.. العادات.. التجارب.. كل شيء، يشعر وكأنه كان في سجن غير محسوس، ويتحرر جسده وفكره ولكن طالما أنجح وسيلة للإقناع هي السفر، فهل نضطر لسفر وانتقال كل الشعوب حتى تدرك الحقيقة!، لا شك أن وسائل الاتصال الحديثة قد تقوم بهذا الانتقال المعرفي ولكن حتى الآن لم تنجح في التقارب والتعارف بين الشعوب.

السجون بعدد البشر على هذه الأرض، سجن لكل مواطن سجن "الوظيفة الحكومية، التعصب الطائفي، مطاردة المتعة، كَنز المال، القعود أمام الشاشة.. إلخ ، والعاقل من يتحرر فيفوز بالحياة الحقيقية.

***

فهرس الموضوعات

ثغرة أمل 7

ممنوع يوم الأحد 13

متى يمتلئ إناءك الصغير 19

يوم الزينة 25

طفلة لأبوين من الصم 31

حُسْن الخِتَام 37

حُب البنات 43

الهويات الانشطارية 49

أزواج وزوجات 56

عبد المأمور 61

لست حرا في هذا العالم 67

المحبس الأم 73

القرآن الكريم .. والقراءة 80

خطأ في تجميع الهيكل العظمي 86

سَكْرَة مُزمنة 93

الستر الدامي 99

بين يحيا ويسقط 105

التعاطف مع الفشل 113

الوعي بالوعي 120

عالم المثال 126
الخلافة الإنجليزية 133
الولد الشقي 148
الصعود إلى أسفل 152
الحياة بلا أشواك 154
طعام نبي 160
عرض غير لائق 167
استنبات القارئ 173
تحت الجلد 180

النخبة
للنشر والتوزيع

في زمن الجيل الكروي الذهبي، «محمود الخطيب وفاروق جعفر»، سُئل المعلق الرياضي «نجيب المستكاوي»: «كيف يجتمع هذا العدد الكبير من الأسماء المصرية اللامعة والمواهب الكبيرة ولا يستطيعوا إحراز بطولة دولية، بينما الفرق الأوربية لديها عدد محدود من المواهب ويحرزوا بطولات! .. فأجاب: «اللاعب الأوربي تدرب على أن لا يحمل سوى فكرة واحدة، إحراز هدف، وعندما يستلم الكرة يقذفها في الشبكة بلا تردد، بينما اللاعب المصري يريد إحراز هدف «بطريقة بهلوانية استعراضية بالكعب أو بعد شقلبة في الهواء وهو يغمز الكرة داخل الشبكة، فيثير إعجاب وتصفيق وثناء الجمهور»، ولهذا فاللاعب الأوربي يحرز هدفاً من كل ثلاث فرص بينما اللاعب المصري يحرز هدفاً من عشرين أو ثلاثين فرصة.

الارتباك أمام الشبكة يضيع الأهداف.. ومع ارتباك القيم تطيش الأهداف.

النخبة للنشر والتوزيع
6225000252869